الباب السادس

منخفضات تهامة

الأول من يناير إلى الثامن عشر من فبراير ١٩٣٧م

obeikan.com

obeikan.com

الفصل التاسع والعشرون

حدود السفوح الجبلية

اتجهت الحدود السعودية – اليمنية، على العموم، ناحية الشمال الغربي حتى ممر علب، وقد بدأت عند حافة الصحراء بالقرب من نجران. تمتد الحدود من هناك وحتى المنحنى العظيم لوادي دفع ناحية الجنوب الغربي، بينما يكون اتجاهها العام على امتداد ضلع جبلي عارف وكتفة ناحية الجنوب الشرقي، ثم استأنفت اتجاهاً نحو الغرب من عمود كتفة، ويقع ممر نيد خرمة قليلاً ناحية الجنوب الغربي من هذا الموقع وشيئاً ما ناحية الجنوب الشرقي من أعمدة منحنى دفع، وكان عمود معقر ناحية الشمال من خرمة. يتجه الخط من معقر إلى البحر ناحية الجنوب الغربي.

يقف العمود الحدودي لنيد خرمة (رقم ٧٧) على طريق خولي – شهدان على قمة جبل جلحة، مشكلاً مجمعاً للمياه بين وادي خرمة من ورائنا ووادي خلس أمامنا، وكلاهما رافد لوادي ضمد. كانت منطقة خولي هي أعلى جزء في هذه الكتلة الصخرية وتقع غرب الممر، والذي تحيط به النتوآت العالية لجرف خرمة. يوجد على الجانب الآخر، مرتفع خفيف كثيف الأشجار لأرض شهدان المرتفعة، والذي توجد فيه قرى زيدان. تكون كتلة جحلة بروزاً عظيماً ناحية الغرب من الضلع العالي لكل من عارف وكتفة، والتي تستمر عبر أرض صفرا المرتفعة لتتصل مع سلسلة بطين السفلى والتي تكون أكتافها الرئيسة الغربية جبال عياش والعر المرتفعة البارزة، والهرمية الشكل، ويبلغ ارتفاع كل منهما ٥٥٠٠ قدم. تطل حافة الممر، إلى أمامنا أو قل ناحية الغرب، على أخدود واسع وعميق وكثيف الأشجار

تكون على جانبيه أقسام كل من خولي وزيداني التابعة لجلحة، وتنحدر في هذا الوادي مصارف الدائرة في مسيلين رئيسين، هما شرح ورضا، ويتحدان تحت اسم شرح قليلاً فوق آبار بئر أم شرح التي سوف نعسكر بالقرب منها لقضاء الليلة على ارتفاع ٣٠٠٠ قدم أسفل الممر، ويدخل المجرى -مع إضافات تدخله أثناء سيره- إلى وادي جلحة إيحام الذي ينشأ في الزاوية بين كتلتي جلحة وصفرا، وبدوره يتصل مع وادي خالس الذي يمكننا رؤية اتصاله مع ضمد إلى البعيد عند مركز السوق مضنب باحة (سوق الأحد)، شيئاً ما ناحية الجنوب الغربي من الممر. وينبع مجرى خالس من سلسلة بطين داخل الممر، والذي يمتد مصرفه من الجانب البعيد عبر سهل مدينة جوى، وهي مركز إداري مهم على الجانب اليمني.

كانت قرية مسلان الكبيرة هي المركز الرئيس لمحافظة منابه التي تتألف من قرى بطين وعياش والعر، وكانت مسلان هي مقر الرئاسة لأمير المنطقة. كانت مسلان واضحة لنا، على الرغم من أنها تبعد عنا بعض الشيء، ناحية الجنوب. كان أبرز القرى التي نراها قرى الطوال على خط الأفق لسلسلة البطين، ودوشة وتقف على نتوء حاد بالقرب من قمة العُر. كانت القرى عديدة وقررت أن أترك أسماءها للمحلق[1]. وقف جبل فيفاء بارزاً بكل عظمته قليلاً ناحية الشمال الغربي، فيما يلي وادي ضمد، الذي إليه انحدر الجانب المنحدر والواسع لصفحته الضخمة، بينما قليلاً اتجاه أعلى الوادي كان الوادي محاطاً بمنحدر بني مالك والقرى التي تقع على قمته والتي كنا قد عبرناها قبل أيام. يقع موضع لقاء وادي خرمة مع وادي ضمد - عن طريق مجرى المديرة - قليلاً ناحية الشمال الغربي من نيد خرمة.

(١) انظر ملحق (جـ). (المؤلف).

لاحظ حردان، دليلنا الزيداني، حينما وصلنا إلى الممر، بعض رعاة خولي وهم ينتهكون حرمة الحدود السعودية مع قطعانهم وهي حالة لو لوحظت رسمياً ستجعلهم مكلفين بدفع ضريبة الضأن أو تصادر حيواناتهم. ولربما أشعلت حرباً قبلية في الأيام الخوالي الجميلة. تركناهم وحالهم! ومررنا عبر طريق يشق الغابات على حافة نتوء يقود إلى قرى زيدانية منها: أرقوب وفدنه والشباب وحفن وغيرها مقامة في المرتفعات وتقع أمامنا على قمة شهدان. لقد نسيت بإهمالي أن أعبئ لفافة التبغ لهذه المسيرة ولما أخبرت حردان بذلك طمأنني بألاَّ أنزعج. ثم رفع عقيرته ينادي القرى في الأعالي التي من أسقف منازل بعضها، ظهر بعض الأشخاص يستجيبون لندائه، وطالت بعد ذلك المحادثة بين الجانبين، وتفصل بينهما مسافة الميل الواحد على الأقل، والتي لم أفهم منها إلا ما يصدر من طرفنا، وتشتمل على توجيهات لتسليم التبغ الذي نحتاج إليه في بقعة في مكان ما إلى الأمام. واصلنا سيرنا بعد ذلك نبتعد تدريجياً عن الطريق أسفل السفح المكون من صخور جرانيتية متناثرة وشجيرات متشابكة منحدرة ناحية الأخدود. هبطنا بهذه الطريقة إلى ١٠٠٠ قدم أسفل الممر خلال ساعة من زحف خطر جداً، حينما وصلنا إلى الرأس الحقيقي لمسيل رضة الذي يعلمه العمود الحدودي (رقم ٧٨) والذي يعرف باسم رزمة أم دوشة لسبب بسيط، هو أن قرية قمه العر التي تحمل ذلك الاسم كانت مرئية لنا.

هبطنا أكثر في مسار حاد على امتداد الجانب الأيمن الصخري لمسيل مسافة ٨٠٠ قدم إلى حيث الرأس العظيم للجدار الجرانيتي الأحمر، وهو قطعة ضخمة منطبقة من الصخر ممتدة عبر المجرى من الجانب إلى الآخر في دفعتين أو ثلاث دفعات، إلى مجموعة من البرك الصخرية عند سفحه على مسافة ٣٥٠ قدماً إلى

أسفل. لم يكن هنالك ماء مندلق فوق الجدار هذا الوقت، وبلا شك ستكون الصورة جميلة جداً أثناء السيول. كان يعلوه جلمود ضخم مستقل من الجرانيت يسمى حياض أم رضة، وعلى الرغم من أنه غير معلَّم، إلاَّ أنه يكون العلامة الحدودية بحكم حقه في ذلك (رقم ٧٩). تعلم البرك الصخرية التي توجد عند ارتفاع ٤١٠٠ قدم فوق سطح البحر و٢٢٠٠ قدم أسفل ممر خرمة، قياس التفاوت في الارتفاع للوادي عند التقائه مع شعيب شرح.

كانت موقعاً محبوباً للذين يهوون المعسكرات الليلية من رعاة خولي وقطعانهم بسبب وفرة المياه فيها، غير أن حردان علَّق قائلاً: إنَّ مثل هذا الأمر لا يمكن مجرد التفكير فيه في الأزمان السابقة، وذلك بسبب الخصام المستديم الذي يميز العلاقات بين خولي وزيداني ويحياوي. كان الأخيران حليفين في مثل هذه المشاجرات، لأنهما في عرف القبيلة أخوال. التحق بنا الآن علي سلمان، رئيس اليزيديين -إلى جانب دليلنا حردان- غير أنه يميل إلى الإذعان لحتروش، الذي كان بلا شك من أهم شخصيات المنطقة. إشارة إلى هذا الموقع الحدودي ليحياوي، فيبدو لنا أن هذا القسم يؤدي دوراً سائداً في سياسات بني مالك. برز يحيى أم شريف من الخالدين في المقام الثاني من حيث الأهمية، إلاَّ أنه كان كائناً ضعيفاً ولا يزال حتى الآن يعاني من انهيار صحته -أشك في أنه يتمارض- ليجد العذر في عدم مرافقتي في أعمالي اليومية الشاقة- كان يفضل الالتصاق مع قافلة الأمتعة التي يرافقها أيضاً عبدالله بن شرقة، الذي بحق قد تملكته الحمى للدرجة التي لم يستطع الخلاص منها.

قد يكون من المناسب استرجاع التركيب العرقي لليحياويين مرة أخرى طالما سنودعهم عما قريب ونغادر بلادهم، وخاصة مآثرهم الحربية. كان من المؤكد أن

مالـكاً هو السلف المؤسس لبني مالـك، كان مثـل جماعـة فيـفاء وبني حـريص الشمـاليين من الأصل اليحيـاني (خولان). كان له ولدان: كـثير ومغـامر، وولد مغامر خالد وسعيد؛ السلف الأول لقـسمي بني مالك الحاليين: خالدي وسعدي. كانت شجرة نسب آل كـثير أكثر تعقيداً وذلك لأنه كـان لكثير أربعة أولاد، عليل ويعلي، وريم وحريص. كان عليل هو سلف آل عليل، وهو قـسم ثالث على قيد الحياة، بينما كان يعلي هو الجد الأعلى لقسمين كنا قد قابلناهما من قبل، وهما آل سلمى وآل حبس. أعطـى حريص بدوره اسمـه إلى بني حريص (شمـال). وكان لريم ثلاثة أولاد: يحـيى وهو الجـد الأعلى لليـحيـاويين، وزيدان، الجـد الأعلى للزيدانيين ونخـيف الذي لم نقـابل أياً من نسله، ولربما تـوفى ولم يكن له أبناء. يتضح من هذا أن كل عناصر بني مالك، ما عدا الخالديين والسعيديين ينتمون إلى فرع آل كثير. يـعتبر تل غويفر على ضمد جنوب منسـية هو الحدود بين الخالديين والسـعـيـديـين، برغم أن تحت قـسم عـزاً -الذي يقع فـي العـرن جنوب أرض الخالديين- هو أيضاً من أصل سعيدي.

وصل إلى مكان جلوسنا بجوار البـرك الصخرية -ونحن نستـجم بعد هبوط مرهق- شخص من قـرية الشباب ومعه نصف جوال من التـبغ المحلي وسبيطة من موزهم المنتج محلياً. لم يكن هنالك مجال لدفع الثمن، إلاَّ أن الرجل كان قد سرَّ جداً بالريال الذي أعطيته له لكرمـه ومشقته وقضائه الليلة مـعنا. كان التبغ قد تم تجفيفـه في بدائية تحت حرارة الشمس وكان أخضـر، غير أنه أدى الغرض منه في غليوني الوحـيد المتبقي، وحـتى هذا القصور قابلـه علي بن سلمان بإعطائي بري مستعمل وهو غليون من النوع الذي يصنع في صـعدة، وبه تجويف كبير من الطين متـصل بسلسلة صغيرة إلى أنبـوب خشبي طوله ست بوصـات. أدى التبغ المحلي وظيفته بصورة أفضل في الغليون المحلي.

تقع برك رضة على أرض يمنية (خولي)، ويمتد الخط الحدودي على الجانب الأيمن لمسيل رضة - شرح المشترك إلى حيث العمود الحدودي التالي (رقم ٨٠) واسمه رزمة أم شقرة، الذي صعدنا إليه عبر حقول دخن - محصود الآن - ذات مساطب تتبع لقرية محشف التابعة لقبيلة خولي، الذين يقومون أيضاً بزراعة الجانب الأيسر للمسيل، يقف العمود الحدودي على ارتفاع ١٠٠ قدم فوق مستوى الوادي، و٤٠٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر، ويتحرك الشريط من هذا المستوى نفسه إلى صخرة شديدة الانحدار، تنهض من بين الحقول المسطبية المزروعة على جانب المجرى. كانت توجد فوقها كومة من الحجارة، تعرف أدبا بأنها عمود حدودي (رقم ٨١) وتسمى رزمة خزنة الجميلة، وتعني صخرة «الخزان الجميل». وصلنا خلال خمس دقائق، ونحن لا نزال عند المستوى نفسه، وفوق حقول محشف المسطبية التي تقع أسفلنا إلى اليسار حتى العمود الحدودي رقم ٨٢، واسمه رزمة تور آل مرا، الذي انتهت فيما يليه الحقول المسطبية، التي تنتمي إلى قرية شرح أسفل كتلة جلحة، في مواجهة حاجز صخري يمتد من جانب إلى آخر في المسيل الضيق.

تعثرنا في سيرنا فيما يلي هذا عند وقت الغسق، فوق بطن سيل وادي سرح المغطاة بقطع من الصخور، إلى أن وصلنا إلى آبار بئر أم سرح داخل غابة لطيفة واستقرَّ معسكرنا بها وكنا مرتاحين لما بذلنا من جهد في هذا اليوم. كنت أعتقد أننا قد أنهينا أعمالنا في الجبال عندما كنا في نيد أم خرمة. غير أن تسلقنا على صخور هذه المنطقة الكثيفة الأشجار والصخور الصارفة للمسيل مهّدا لعمل صعب ما كنا نقوم به في أماكن أخرى، وكان هذا بداية طيبة للعام الجديد الذي احتفلت به بتناول وجبة عشاء ممتازة من لحم الضأن والأرز والموز المحلي ومحتويات علبة من

الكمثرى اليابانيـة. لقد أتلف العمل الصعب خلال الأسبـوع الماضي طبقة المشمع العليا لحذائي المطاطي، وتحـوَّلت إلى شرائح، وقررت أن أستخـدم نعلاً جديداً – هو الأخير لديّ – خاصة ونتوقع مسيـرة سهلة. لن أنسى بسهولة أشواك وصخور وادي شرح. قد بدأ الطقس يتحسن بصفـة عامة وكانت بدايات الأيام في الصباح لطيـفة، غيـر أن السحب تـتكاثر عند أوقات الظهـر وتسقط زخـات من المطر في أوقات المساء، التي تـطورت عند الساعة الخامسـة صباحاً إلى رزاز مـتواصل حتى شروق الشمس، وحـينها كل شيء لدينا قد تبلل بدرجة أخرت بداية مـسيرنا إلى الساعة العاشرة والنصف صباحاً. كـان صباحاً، بائساً وكل ما كنا نفعله أو نحاوله أن نظل بعـيداً عن البلـل باللجوء إلى الأشـجار ومن فـوقنا البطاطين وقـد بدأت وكأنها الخيام لنبعد عنا قطر المياه.

تمثل بئر أم سرح علامـة حدودية قبلية قديمة بين قبيلـتي خولي وزيداني ومعلمة من كتلة كوارتزية مغروسة في ثبات في شق شجرة أثاب (تين بري) في وسط مجرى السيل، نامية من بين مجموعة من الصخور على بعد نصف المسافة بين الثقبين المائيين أسفل كل من جـانبي المجرى. كان الـعمود الحـدودي الدولي عبارة عن كـومة من حجارة ملقاة مع بعضها فوق الصخور نفسها تحمل رقم ٨٣ وعلى ارتفاع ٣٣٠٠ قدم فوق مستـوى سطح البحر، ظل الثقب المائي الذي يقع أسفل الجـانب الأيسر معطلاً لبعض الوقت، إلاَّ أن انسياباً للماء من نبع أسفل كـتلة الألواح الشستية على الجانب الآخر، جعلت بريكة الزيداني ممتلئة بالماء للقطعـان، كانت المسافة بين ثقبي الماء ٤٠ ياردة فقط، ويكوّن وسط المجرى الحدود إلى مسافة حتى العمود الحدودي رقم ٨٤، الذي يسمى مسنة، معلماً موقع دخول حوض ضحل بالاسم نفسه، من جانب التلال المتـموجة الـتي تقع على الجانب الأيمن، ويتـجه من هذا الموقـع وادي سرح ناحـية

اليسار، ويدخل أرضاً يمنيـة ليدخل مجرى أكبر يسمى جلحة أيحـام. كان معسكرنا على الجانب الأيسر، وعليه فهو فوق أرض يمنية، ووجدنا بين أشجاره عش حمامة، وكانت به بيضة واحدة عرَّفها حتروش بأنها بيضة حجل.

وصلنا إلى العمود الحدودي بعد ١٥ دقيقة من بداية مسيرتنا التي تأخرت هذه المرة على المجرى، ويسمى مسانة (رقم ٨٤) على ارتفـاع ٣٣٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر، وتقع فوق ممشى حمير واضح على ارتفاع عشرين قدماً فوق مستوى الوادي عند منحناه الأيسر.

هبطنا من جانبه البعيد إلى حوض هرمة الضحل وهو يمثل الحدود الآن، فوق أرض سفوح جبلية متموجة كئيبة مع بعض الأشجار القليلة الجافة وبعض الأشجار الخفيضة، وتقود إلى العمود الحدودي التالي عند منحناه الأيسر ناحية مجرى أيحام يقع عمود نيد أم صرمة – رقم ٨٥، وعلى ارتفاع ٣١٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحـر، وهو موقع لقاء ثـلاثي بين كل من خولي على الجانب الـيمني، وزيداني وسعـيدي على الجانب الآخـر، وتمتد الحدود الداخـلية بين زيداني وسعـيدي إلى مسافـة نصف الميل على امتداد جدول رافد إلـى مضيق ينحدر من صرمـة ليتصل بضمد.

خرجنا بذلك تماماً من منـطقة قبيلة يحياوي (زيـداني) إلى داخل تلك التابعة إلى سعيدي التي دخلناها أول الأمر من عثوان، يمتد الشريط الحدودي الدولي الآن ناحية الغرب فـوق سلسلة عرق الضعاف الحجرية الجـافة غير المشققـة والمتموجة، والتي فوق قمتها وقف العـمود الحدودي رقم ٨٦ – على ارتفاع ٣٦٠٠ قدم فوق مستوى سـطح البحر –، أو كان المفروض أن يقف فوقـها، وذلك لأنه يوجد في

موقعه حجر واحد فوق كومة مبنية فوق صخرة ارتفاعها عشرة أقدام. ربما نقلت السيول بقية الحجارة أو نزعها لأجل التسلية أحد الصبية الرعاة العاطلين؛ الذي لم يجد ما يمكنه فعله أفضل من ذلك.

كان هنالك تصعيد تدريجي في الارتفاع لهذه السلاسل المتتابعة المعترضة التي واجهتنا بعدها، بعد هبوطنا إلى الحوض فيما يلي ضعف بتسلق رئيس للسفح الجبلي المكسو بالأشجار بصورة جيدة للسلسلة التي لا تزال تمثل قمة السفوح الجبلية لهذه البلاد، يسمى هذا الموقع بدوة -أحياناً تسمى قرعة- وهو بروز شستي للسلسلة يحمل العمود الحدودي (رقم ٨٧) عند أعلى موقع به، ويرتفع إلى ٤١٥٠ قدماً فوق مستوى البحر، ويسيطر على منظر ممتاز بمعنى الكلمة للمحيط المجاور. يمكننا أن نرى إلى البعيد سهل تهامة عبر فجوة واسعة تركتها الصفحات الهابطة لكل من العر وفيفاء لأجل أن يمر عن طريقها ضمد. لم يكن السهل -للأسف- واضحاً وهو بلا سمات بارزة، وكان ضبابياً مما لم يسمح برؤية البحر فيما يليه وليست به خصائص لافتة للنظر.

كان هنالك ما يمكن رؤيته في أي اتجاه آخر، غير أننا توقفنا طويلاً هنا لتناول وجبة الغداء ولمناشط أخرى، كنا نستطيع رؤية بئر أم سرح ناحية الشرق، وكان جبل فيفاء نفسه ناحية الجنوب الغربي على الشريط العام نفسه الذي سنسلكه من هذا الموقع على الحدود. حجبت كتلة العُر العظيمة مجال الرؤيا ناحية الجنوب وكانت قمتها تقريباً ناحية الجنوب، بينما نستطيع رؤية ممر نيد جلال -قليلاً ناحية الغرب من العُر-. وأستطيع تسجيل الاتجاهات لبقية المعالم التي كنت قد ذكرتها خلال الأيام القليلة الماضية -قبل أكثر من أسبوع- عبر القطع الناقص لمسيرتنا من عند فيفاء إلى منحنى دفع والعودة الآن إلى مستوى فيفاء. لقد كان من أكثر المناظر

شـمـولية الـتي تمكنت من رؤيتـه منذ زمن، وأمكنني ذلك مـن تكوين فكرة عن الكثافة المدهشة للسكان فيما يمكن وصفـه بأنه حوض ضمد. تقع مدينة جو ناحية الجنوب الشرقي من موقعنا ويمتد واديها إلى أسفل، ليـتصل فيما بعد بمجرى وادي جازان الذي يقع داخل الجبال.

واصلنا مسيرتنا بعـد الساعة الثانية ظهراً على قمـة العرن لسلسلة قرعة لنصل طرفه النهـائي إلى العمـود الحدودي رقم ٨٨ والمسـمى طور أم لبيدة عـند ارتفاع ٣٧٥٠ قدماً فـوق سطح البحر. لم يكن العمود مـوجوداً حقيقة غـير أنه قيل لي وبكل تأكيد إنه كان واقفاً ذات يوم على صخرة كـبيرة عند نهاية العرن، تقع ناحية الغـرب من موقـعنا وعلى ارتفاع ٣٠٠ قـدم أسفل من مـوقعنا هذا، عند أسـفل الهبوط الشـديد الانحدار مجمـوعة كبيرة غـير منتظمة من الحجـارة تؤدي وظيفة العمـود الحدودي (رقم ٨٩) أم أوقر في حـوض يفصل هذه السلسلة المرتفـعة من التي تليها.

تم تكريم صخرة تقع فـوق هذا العمود لكونها موقع لمعركـة قديمة بين رجال قبيلتي خولي وسـعيدي، والتي كانت من نتائجها مقتـل شخص واحد فقط، يعد هذا الحوض الضحل ممراً مطروقاً لأراضي قبيلتي سعيدي وخولي أوعياش، ويكون العمـود الحدودي موقع لقـاء ثلاثي لهذه العناصـر الثلاثة، يقع العمـود الحدودي التالي على المستـوى نفسه بعد ارتفاع قصـير من الحوض على سلسلة طور الأباد، وهو عبارة عن كـومة من الحجارة تم الاعتراف بهـا رسمياً كعلامة حـدودية قبلية جيدة تفصل بين سعيدي وعـياش، تحمل الرقم تسعين في السلسلة. كانت هنالك -بين هذين الموقعين الآخرين، وإلى ناحية الغـرب- علامات واضحة لطريق واسع والغرض منهـا يصعب تعليله، ولا يوجد أثر أو تقليـد محلي لحركة سـيارات في

هذه المناطق النائية. ويبدو أنها تكوِّن خط ربط من هذه السلاسل -على زوايا قائمة- للمواصلات العادية بين المحافظات على امتداد الأحواض التي تفصل بينها.

يوجد عمود حدودي على قمة سلسلة حضوت أم قرية، على مستوى الارتفاع نفسه (٣٤٠٠ قدم) (ويحمل الرقم ٩١)، بالرغم من أنه ولسبب مجهول، كما يقول الشيوخ الذين يرافقوني، ولربما عن طريق الخطأ، فإن هذا العمود لم يسجل رسمياً بواسطة المؤتمر التأكيدي الذي عقد في ظهران بعد الفراغ من تعليم الحدود. وصلنا بعد مسافة عشر دقائق سيراً على الأقدام إلى العمود الحدودي (رقم ٩٢) على المستوى نفسه تقريباً، وعلى السلسلة التالية، واسمها ضهر أم أباد، وهو نصب جيد البناء شبيه بذلك الذي شاهدناه في بدوة ولكنه أقل منه إعداداً. وصلنا خلال عشرين دقيقة بعد أن واصلنا السير على الطريق المتعرج لهذه البلاد العارية المتدحرجة إلى مضيق يفصل مسيلين ضحلين يجريان في اتجاهين متضادين، هما سيل شعيب ملسة ويتجه جنوباً ناحية وادي أيحام، ومسيل شعيب منعمتين ويجري إلى أسفل إلى ضمد، يسمى هذا المضيق نيد أم غرا، وقد تم تعليم الحدود البدوية القديمة بعناية فوقه بصف من قطع الصخر مثبتة وهي قائمة في التربة.

كانت توجد على إحدى الصخور خدوش لأثر الرصاص، وإلى جانب ثلاث علامات وسم متشابهة، ربما يشير ذلك إلى عدد الضحايا الذين سقطوا في معركة في هذا الموقع. يصعب رؤية العمود الحدودي الرسمي (رقم ٩٣) وذلك لأنه قد وضع في فجوة في الشريط القديم وبدأ كأنه جزء منه، كان هذا العمود على مستوى أقل مقارنة مع أعمدة أباد التي سبقته وذلك لأن المضيق كان في حوض

ضحل يفصل السلاسل المعقدة عن التالي والذي يقع إلى أعلى قليلاً، ويسمى قرية والذي على قمته توجد هذه الأكوام التعيسة من الحجارة التي تم تسجيلها رسمياً كعمود حدودي باسم رزمة أم قرية وتحمل الرقم ٩٤، وتقع على ارتفاع ٣٤٠٠ قدم فوق سطح البحر، وقليلاً ناحية الغرب من نيد أم خرمة.

تقف كومة من الحجارة على موقع أعلى بالقرب من وسط السلسلة ولا تعلّم هذه الكومة حدوداً قبلية أو دولية، إلاَّ أنها تشير إلى الطريق الذي يؤدي إلى مشرب وغرة على حافة ضمد. أمكننا رؤية موقع عمود نيد جلال الحدودي إلى البعيد ناحية الشمال من موقعنا، كما بدأنا نطل على حوض وادي خلس، وتوجد به قرية ضربة الصغيرة المدمرة (ثربة) فوق هضبة صغيرة في موقع بروزه من تلال البطين ثم يدور بعنف ناحية اليمين، واصلنا سيرنا غرباً إلى أسفل على امتداد عرن سلسلة قرية ووصلنا خلال ما يزيد على نصف الساعة من مسيرة صعبة إلى كومة حجارة أخرى مكسرة في مضيق منخفض على ارتفاع ٢٦٠٠ قدم فوق سطح البحر، يسمى نيد أم ثوع ويفصل بين مجريين هما أم رضة وينساب أسفل إلى ضمد، وشعيب بلا اسم يجري إلى أسفل إلى وادي خلس أو أيحام، كانت مجموعة الحجارة التي وضعت في شكل غير مشرِّف بما يجاورها من أكوام حجارة البدو العديدة على رأس التل والتي يتكرر ظهورها ونحن نقترب من موقع المشرب، هي العمود الحدودي (رقم ٩٥). نستطيع رؤية غيل شعيب جرعة، وهو أحد روافد خلس، الذي يمتلك فيه علي بن فرحان حقاً عرفياً تم تسجيله له بواسطة لجنة الحدود، لأجل سقي قطعانه منه برغم أنه يقع داخل أراضٍ يمنية.

توجد مجموعة من العشش الحجرية الدائرية الجيدة البناء على الجانب المحجوب من الرياح من السلسلة التالية فيما يلي قرية، وتقع قريباً من هذا الموقع

ويبدو أنها غير مأهولة تنتمي إلى البدو في أرض يمنية. مررنا بها ناحية اليسار ونحن نهبط فوق أرض متموِّجة، عارية، حجرية إلى العمود الحدودي التالي الذي تم تسجيله رسمياً باسم نيد أم ضراط -رقم ٩٦، على ارتفاع ٢٥٠٠ قدم فوق سطح البحر-. لقد فرض هذا الاسم الغريب على هذا العمود وبالمناسبة لم يكن العمود موجوداً بالرغم من أن ابن فرحان أسرع في وضع عدد من الحجارة مع بعضها، وكان يظن أن أحداً لم يره لتحديد الموقع - وذلك بسبب حادثة مشؤومة. ذلك أن أحد أعضاء لجنة الحدود قد أخرج ريحاً (ضرط) وقد خرق ذكاء البدو اتفاق اللباقة -وهو أمر خطير في المجتمعات العربية العالية، التي تسمح وتشجع القذف- بهذا الاسم المرتجل.

تعلّم كومة الحجارة موقع التقاء ثلاثي بين أرض عياش على الجانب اليمني وأرض سعيدي وخالدي على الجانب السعودي. تتبع الحدود بين قسمي بني مالك، حوضاً ضحلاً، يتعمق تدريجياً ويضيق في ممر تحفه جلاميد ويعبر من خلال الينابيع الحارة لوغرة ليتصل مع وادي ضمد بعد مسافة معتبرة فيما يليها، كادت الشمس أن تغرب الآن، وتركنا أعمالنا الخاصة بالحدود في الوقت الحاضر لنسلك هذا الطريق لنعود إلى زملائنا، الذين قد استقروا منذ فترة في المعسكر الذي يقع فوق مروج خضراء، على حافة بريكة في وادي ضمد على ارتفاع ٢٢٠٠ قدم فوق سطح البحر، و٣٣٠٠ قدم أسفل نيد أم أثبة، التي يمكن اعتبارها رأسه المؤثر.

أخذت معي بعض الملابس النظيفة بعد أن استرحنا قليلاً في المعسكر ثم توجهت إلى ينابيع وغرة لأستحم، وكررت ذلك في الصباح. تسيل الينابيع الحارة من داخل قاعدة صخور جرانيتية في الممر وربما من موقع اتصالها مع الصخري

الشستي التحتاني، على بعد ٥٠٠ ياردة من فم الممر، حيث تكون المياه لا تزال دافئة وهي تنساب إلى ضمد لتكوين الغيل الذي يجري إلى مسافة معتبرة أسفل المجرى. ينتهي غيل أعلى يسمى جزومه قليلاً فوق المروج التي نعسكر فوقها حيث كان بطن الوادي الحصوي جافاً تماماً.

تنساب المياه الساخنة من بركة داخلية أبعادها ١٠ X ٥ ياردات ويبلغ عمقها أربعة أقدام، وتعلوها من الخارج كتلة صخرية ساقطة من الجرانيت، وقد كانت مثقوبة بواسطة نفق طبيعي يقود إلى بركة ضحلة أكبر، والتي يخرج منها جدول ضيق عبر الممر إلى ضمد. كانت درجة حرارة الجو في الصباح ٧٠ درجة فهرنهايت، وكانت درجة حرارة الماء ١١٣ درجة. يخصص هذا الجانب لسباحة الرجال، بينما تم حجر البركة الخارجية للنساء. واللاتي يجدن في الغابة اللطيفة للممر درجة من الخصوصية. يقوم بزيارة هذه البرك عدد كبير من الزوار، معظمهم من اليمن، علاجاً للروماتيزم والأوجاع المماثلة.

كنت فرحاً بالحمام الذي أخذته في المساء بعد مسيرة مرهقة وصعبة ومتعرجة فوق سلاسل السفوح الجبلية، كانت الصفة العامة للصخرة متماثلة مع تلك التي اعتدنا عليها في الجبال، ما عدا اتجاه توضع صخور الشست التي أصبحت تميل نحو الوضع الأفقي بدلاً من العمودي. ثم تصير مسطحة تماماً كما في مجرى ضمد، بينما أدت بعض الاضطرابات الصخرية المحلية في ممر وغرة إلى حدوث الينابيع الحارة، وإلى توضع صخور الشست على النظام العمودي مرة أخرى. كان الجرانيت الأحمر أكثر انتشاراً أثناء مسيرة النهار ويكون أحياناً فوق الشست كتلاً ضخمة وأحياناً يكون متداخلاً معه. كانت الجلاميد في ممر وغرة من الجرانيت وكان الشست من خلفها على الجانبين.

وجدت إشكالاً يتنامى في المعسكر عند عودتي من حمام المساء بنشوب شجار قديم كان بين سعد وفرج، لقد كنت طلبت من فرج أن يقوم بتسديد كل فواتير المواد التي تجلب إلى المعسكر، ويصر سعد الآن أن فرج كان يدخل المال لجيبه الخاص وأنه لا يقوم بتسديد أسعار الضأن وأشياء أخرى لم يسدد قيمتها. كان هذا أمراً خطيراً لا يمكن تجاهله، ولذا قمت بتحقيق فوري بمعاونة عبدالله بن شرقة ورؤساء القبائل. اتضح تماماً أن تلميحات سعد لا أساس لها، وتأكد لي تماماً أن كل شيء قد تم تسديد قيمته. كان سعد خجلاً تلك الليلة. لقد خدمني سعد لعدة أعوام غير أنه كان هو نفسه عدو نفسه السيء الوحيد، كان دائماً يختلق المتاعب وكان بصفة عامة سيئاً في عمله، كسولاً، وغير كفء، ولا يمكن أن استغني عنه كخبير تصبير الحيوانات. لقد قمت هنا وفي مواقع أخرى في التلال، باكتشاف طائر التفاحية الجذاب اليمني، وأصبح طائر الجنة صائد الذباب شائعاً هنا وجميلاً كعادته، كانت غابات وغرة مليئة بالبلابل، وكانت طيور أبي مطرقة متجمعة تصيد أسماك المينو من مياه الغيل.

صعدت مع المرشدين وذلك قبل انطلاقنا لأداء عمل اليوم، لصباح الغد، إلى قمة الجرف الذي يطل على المعسكر من أعلى فم ممر وغرة، لفحص الأرض التي سنتعامل معها في مسيرتنا التالية. كانت ينابيع وغرة الحارة داخل أرض سعودية بالطبع غير أننا في نيد أم ضراط وصلنا إلى موقع، كان فيه الخط الحدودي ولأول مرة في كل مداه، موضع شك ونزاع بين القبائل على الجانبين – عياش وآل خالدي – وللحكومات التي هم من رعاياها. لم تتمكن لجنة الحدود من إنهاء الأمر، بل قامت بتعليم الشريطين بالأعمدة الحدودية وأن تترك الحل والقرار النهائي، لموافقة الحكومتين، بالأسلوب القبلي العادي. لقد واجهتنا حالة حدودية

مماثلة من قبل، فيما يتعلق بمقبرة ثعلة عند ملتقى وادي مروان ووادي العرض في قطاع نجران، ولقد قضي في أمر هذا النزاع في الموقع نفسه بواسطة ممثلي الحدود، حينما أحضر المدعون من وايلة خمسين شاهداً قاموا بأداء القَسَم بأن المقبرة تحتوي على رفات موتاهم، وأنها كانت كذلك وظلت كذلك.

كان جزء كبير من أرض المراعي، في الحالة الحالية هذه، على الجانب الأيسر لضمد متضمنًا، وكانت عملية تجميع المعلومات الضرورية والإثبات معقدة جداً للتخلص السريع. انقضى أكثر من عام ولا يزال الموضوع معلقاً مع وجود أرض لا مالك لها بين المجموعتين المتنافستين، كان المبدأ الذي تم تبنيه للحل النهائي لهذا الموضوع بسيطاً.

يقوم الخالديون وقسم آل عزة من السعيديين شراكة باستعمال الأرض موضع النزاع -لا يتضمن أي قرى للرعي في الواقع-. يبقى على المدعين وهم قبيلة آل عياش، أن يتحملوا عبء الإثبات بأن لهم الحق في استعمال الشريط الذي يزعمونه. كان كل ما عليهم فعله هو إحضار خمسين رجلاً من قبيلتهم الخاصة لأداء القَسَم أن هذا هو الحق. يبدو الأمر سهلاً، غير أنه ليس كذلك إطلاقاً، وذلك لأن المدافعين الخالديين لهم الحق في اختيار خمسة من بين الخمسين شاهداً التابعين لآل عياش، ولابد أن يكون القَسَم بالإجماع.

يمكن لمعارض واحد من بين الخمسين أن يسقط القَسَم، ويكون القرار في صالح المدافعين. لقد اختار الخالديون رجالهم الخمسة منذ فترة، إلاَّ أن العياشيين لم يجمعوا بعد الخمسة والأربعين المتبقين، بينما وافق الخالديون بلا تحفظ على قبول الشريط - أحد الشريطين المتنافسين - بشهادة أداء الخمسين بكاملهم للقَسَم.

يوضح قصور قبيلة عياش أن مطلبهم لا يقوم على حقيقة قبلية، سأتبنى من حيث المبدأ الخط الـذي يتزعمـه الخالديون لغـرض وضع الأرقام على الأعمـدة مع طقم محتمل لمزاعم عياش.

عدنا على أعقابنـا فوق مسيل وغرة في اتجاه عمـود نيد أم ضراط الحدودي، وذلك بعد أن ألقينا نظرة من الجرف وحددنا كيفية العمل.

وصلنا وعبرنا مجـرى شعيب دهنة بعد مسيرة أربعين دقـيقة، وقد هبطنا من سلسلة قرية متجهين نحـو وادي خلس، الذي وصلنا إلى جانبه الأيمن أعلى موقع الالتقـاء خلال دقائق قلـيلة، ثم وصلنا في وقت لاحق وعلى مسـافة ٥٠٠ ياردة أعلى الوادي إلى فم ممر شـاهق والذي من عنده يجـري الوادي من سلسلة البطين في غدير جـذاب صغيـر. يطلق على الممر اسم نقـيل الغنم أو «ممر الغنم» ووقف عند فمه، على حافـة الصخرة العمود الذي وضعه الخـالديون لإبراز حقهم. كان رقمـه هو ٩٧س (س تعني سعـودي) عند الموقع الذي يجب أن تعبـره الحدود في خط مستقيم من عمود نيد أم ضراط الحدودي، كان الارتفاع هنا ٢٣٠٠ قدم فوق سطح البـحر، وكانت صـخور وجـلاميد الجـرانيت الشديدة الانحـدار وجلامـيد الشست تأوي أعـداداً كبيـرة من الأرانب الأوروبية، وقد رأيت العـديد منها وهي تهرب إلى جحورها الصخـرية في أعلى الصخرة، وذلك أثناء قدومنا، كان المنظر لطيفاً عند فم الجرف، كانت جدرانه منقرة ومـحفوراً بها العديد من المناطق المنعزلة المظللة، وقد تحـولت إلى تعريشات حقـيقية بغطائهـا النباتي المزدهر مدعمـة بالمياه المستـديمة. يقع الموقع التالي الذي يطالب به الخـالديون ناحيـة الجنوب الغربي من الممر عند هضـبة تسمى حـدَّة -كانت قمتـها ترتفع إلى ٢٥٥٠ قدمـاً فوق سطح البحر- وتطل على مـجرى شعيب حدّة الذي ينبع من سفـوح هرم عياش وينساب

تجاه الغـرب ماراً بهـذا التل ليتصل مـع وادي خلس على مسافـة نصف الميل إلى أسفل -سـنرقم هذه النقطة بالرقم (٩٨س)- ويمتد مـنها الشـريط الخالدي ناحـية الجنوب الغربي إلى الموقع التالي وهو أم فرحة، على مسافة منا.

يتضح من هذا المطلب أن كل وادي خلس من أسفل الجـرف إلى موقع اتحاده مع ضمد عند مـجنب أم باحة -إلى الغرب من هضبـة حدَّة- هو ما يُنادى به من العربية السعـودية، ويحدد مطلب قبيلة آل عياش خط الحدود بأنه يمتـد مباشرة من نيد أم ضـراط إلى شجرة التين البـرية الضخمـة رقم ٩٧ ي (ي تعني يمني)، عند مـجنب أم باحـة بالقـرب من فـم وادي خلس، تاركـاً بذلك كل وادي ضـمـد للخالديين، إلاَّ أنه يضع كل مجرى خلس تحت ملكية العياشين. سلكنا -بناءً على هذا- طريقنا من حـدَّة إلى وادي خلس وتتبـعنا مجـراه إلى أسفل إلى مـجنب أم باحة على مـسافة نصف الميل من مـوقع الاتحاد -حوالي ٢٢٥٠ قدمـاً فوق سطح البحر- عند أسفل مـوقع اتصال مياه غيل خلس مع الجدول الجـاري لضمد. كان سوق الأحد في ذروته أسفل شجرة تين ضخمة ويقال إن معظم من حضروه كانوا من مجـموعات الفرود واليـحيانيـة، وتشتمل الفـرود على عناصر من كل من آل عياش والبطين والعر، كلهم متوحـشو الشكل، نصف عراة وهم يمضغون مخلوط البرتقال ويبصقون فوق المكان.

تحركنا بعيـداً عن السوق بعد أن تفقدنا أكـشاكه الفقيـرة المحتويات، وجلسنا أسفل صخرة من الشست مائلة ذات ظل بارد تكون الجانب الأيمن لضمد. سرعان ما أحاط بنا حشد كبير من وَقْد ركـزوا اهتمامهم علينا بدلاً من اهتمامهم بسوقهم وأصبحت نصف المساحة فارغة. لم يكن لديهم ما يقولونه، بل جلسوا بقناعة في الظل يراقبوننا ويمضغون ويبصقون.

لم نمكث هناك لأكثر من نصف ساعة وسرعان ما كنا نتحرك على جانب الغدير متوجهين ناحية الموقع التالي الذي يطالب به العياشيون. تركنا الجدول والمروج العشبية لضمد لنصل إلى ذلك الموقع فوق أرض صخرية على الجانب الأيسر لضمد الذي قد جرَّحته أعداد كبيرة من المسايل الصرفية إلى أن وصلنا إلى البرك الصخرية الرائعة التي تسمى حنكر في ممر لطيف مفتوح ينحدر ناحية ضمد. كانت أرضية الممر من صخر جرانيتي قد أملسته حركة السيول وفي بعض المواقع قد تحفّر إلى برك ذات أعماق مختلفة كانت ذات مياه مستديمة.

يطالب العياشون بأكبر هذه البرك وأعمقها بأن تكون هي نقطة الحدود –رقم ٩٨ ي على ارتفاع ٢١٥٠ قدماً فوق سطح البحر–، تاركين عدداً من البرك الصغيرة داخل أراضيهم والبرك السفلى تابعة للخالديين.

تأخرنا هنا لما يزيد عن الساعة، جالسين على حافة السفوح العظيمة الملساء الجرانيتية حول البركة الرئيسة التي كانت مليئة بالأسماك الكبيرة، التي لا يقل وزن العديد منها عن الرطل الواحد، وقفزت كلها في هجوم عنيف على فتات الخبز الذي كنا نسقطه في الماء ونحن نتناول غداءنا، تأسفت إذ لم تكن معي سنارة صيد السمك، ذلك لأن الأسماك كانت أكثر مكراً من أن تدخل في شبكة لصيد الفراشات والتي كنت قد استخدمتها مرة أو مرتين بلا فائدة للحصول على عينة. يعتقد أنها من نوع القَرْخ، وهو النوع المستوطن في هذه الأنهار العربية. أزعج قدومنا إلى هذه البرك عدداً من البط، بينما كان على رأس الشجرة الوحيدة النامية بجوار السطح المائي الكبير عش كبير لطائر أبي مطرقة مبنياً على مستوى منخفض جداً، برغم أن هذا الموقع لا بد أن يكون مصيفاً مطروقاً للرعاة.

وصلنا إلى رأس مسيل بطنه صخري عند موقع التقائه مع شعيب كحلة ناحية الشرق من شعيب محد ناحية الجنوب الشـرقي، تتبعنا مجرى محد وهو يدور إلى الأمام فوق مسار متعرج وبه العـديد من البرك الصخرية على فترات، وكان هنالك نبع يسيل بلطف من داخل الصخر الشستي بين زخم مـن نباتات كزبرة البئر وغيره من السراخس.

تحركنا مع المجرى بـعد مسافة إلى أعلى لنعـبر سلسلة منخفضـة من جرانيت رمادي تـقع في محـور الشمـال الغربي والجنوب الشـرقي عند أقصى نقطة بـها، لتكون النواة للعمود الحدودي التـالي على الشريط الذي يطالب به الخالديون إذا تم تدعيمه، كـان هذا الموقع هو أم فرحة عمود حدودي مـحتمل (رقم ٩٩ س) عند ارتفاع ٢٥٠٠ قـدم فوق سطح البحر، وقليـلاً ناحية الغرب من آخـر موقع على هضبة حدَّة. كان المنظر كـئيباً بصفة عامة، برغم كثـافة أشجاره، وهو فوق أرض متمـوجة سفوح جبلية، وتقـع قمة جبل العر ناحيـة الجنوب وتسيطر على المنظر، ويجر فيـفاء أذياله ناحية الغرب إلى أسـفل ناحية ربوات وسلاسل منخـفضة على الجانب الأيمن لضمد. يقع جبل عيـاش ناحية الشرق، وتربطه سلسلة متواصلة مع العُر الذي كانت هذه السفوح الجبلية هي الوجهات الخارجية له والتي تتدحرج إلى أسفل إلى ضمد.

يجري مسـيل جبرية من سلسلة أم فرحـة إلى أسفل حول الحاجـز الجرانيتي لشعيب مـحد الذي دخلنا مرة ثانية إلى جـزئه الأعلى لفترة، ينحدر الـشعيب من سفوح عيـاش، غير أننا تباعدنا عنه على طريق أقصر لنعـبر العرن المنخفض الذي يمتد من قـاعدة العُر. يطالب الخالديون بالممـر الذي يوجد عند قمتـه بكونه موقع نقطة حدودهم الرابعة المتنازع عليها (رقم ١٠٠س) وتسمى نيد أم رزم على ارتفاع

٢٥٠٠ قدم فوق مستوى البحر، وبداية انطلاقه شعيب ملسة الذي تتبعناه إلى أسفل فوق مسيل ضيق غير مثير للاهتمام تنمو فوقه بكثافة شجيرات خفيضة جافة وبعض شجيرات الطلح، إلى حيث العمود التالي غير موجود الذي يطالب به السعوديون، لقد كان هذا العمود مثبتاً على الجانب الأيمن للمسيل لتحديد الموقع إلاَّ أنه تحلل تماماً. كان هذا هو العلامة رقم ١٠١س على ارتفاع ٢٣٥٠ قدماً فوق سطح البحر، ويقع ناحية الجنوب من نيد أم رزم.

تتبعنا الآن انحناءة المسيل ناحية الجنوب الشرقي، حيث اتصاله مع المجرى الحصوي العريض لوادي ضنبة، الذي ينحدر من القسم التابع لقبيلة آل يزيد على سلسلة البطين. يعلّم هذا الالتقاء بشجرة طرفاء كبيرة وهو معترف به كعلامة حدودية (رقم ١٠٢س)، ويكون رأس وادي حربرب على ارتفاع ٢٢٥٠ قدماً فوق سطح البحر، ويزعم أن كل المجرى من هنا وإلى أسفل – حسب قول الخالديين – يقع داخل الجانب السعودي للحدود. تم وضع كومة حجارة بائسة على نتوء على الجانب الأيسر، وقيل لي إنها عمود حربرب الرسمي المعترف به الذي قبله الطرفان لحل المشكلة.

لا يزال يحيى أم شريف في تمارضه برفقة قافلة العفش، غير أنه توفر لي دليل لمثل هذه النقاط المتنازع عليها وهو الشيخ عزة (سعيدي) واسمه الشيخ يحيى ابن جبران، وموطنه قرية ربيعة بالقرب من ريدات العزة، كان ناصحاً في شرحه لتفاصيل النزاع وأبرز شريط العياشين بأوضح صورة كمطلب خاص به. تمكنا من تضييق الخلاف إلى نقطة يمكن الاتفاق عليها، غير أن الشمس كادت تغرب حينما فرغت من عمود حربرب وقررنا أن نتحرك إلى أسفل الوادي لنعسكر بالقرب من التقائه مع ضمد. لقد كان المجرى صخرياً حصوياً مع مساحات متفرقة من مياه

جارية على فترات، تنبثق من نبع عنيف في وسط جلاميد متكومة بالقرب من آخر الأعمدة الحدودية، اتَّسع المجرى إلى أسفل إلى ممر كثيف الأشجار يقع بين صخور عالية داكنة من الشست، سرنا فوقها نازلين مع الظلام الدامس متوجهين ناحية ضوء مصباحي المشع في المعسكر. كانت الساعة السابعة مساءً حينما وصلنا، لنجد رفاقنا في انتظارنا فوق رف خشبي عريض على الجانب الأيسر للوادي في موقع يدور فيه في انحناءة حادة جنوباً فوق موقع التقائه مع ضمد. كنا هنا على ارتفاع ٢٠٠٠ قدم فوق سطح البحر. وكانت الليلة لطيفة ذات سحب، وكانت هنالك رطوبة خفيفة في الهواء، وكانت درجة الحرارة الدنيا ٦٢ درجة، ولم يكن هنالك ندى، تميز كل اليوم بالنسيم اللطيف مقارنة مع يوم الأمس الذي كان حاراً ورطباً.

لقد كنا هنا في أمر مهم في تجولاتنا هذه، والآن وبعد أن فرغنا من النقاط المتنازع عليها، فلا بد من وقفة لفترة، شغلناها بالنظر إلى النظام العام للسفوح الجبلية وهي تقترب من سهل تهامة، ذهبت إلى ربوة مناسبة في الصباح قريبة من معسكرنا، كان مجرى حربرب، يلتوي ويدور في أجزائه السفلى خلال غابة جميلة يكثر فيها طائر العجلة الغامض، وطائر صائد الذباب الفردوسي والبلابل وطيور الشقراق الحبشي وطيور السوَّادية، وطيور أخرى عديدة، يصب في ضمد عند موقع يبعد حوالي ميلين من معسكرنا، وعلى مسافة تقارب الميل الواحد فوق موقع دخول وادي عرفه، الذي ينساب على الجانب القريب للسلسلة التي تحمل الاسم نفسه وينتهي في موقع اللقاء مع جدول جارٍ (غيل) يسمى حجفًا. يخرج ضمد إلى آخر مجموعة من التلال السفحية بين الطرف الشمالي لسلسلة عفرا والأطراف الخاصة لعرنين، منخفضين يجريان خارج قاعدة فيفاء هما دوحان

والشرحاء. كان هذا هو ما أمكننا رؤيته من ضمد، باستثناء ضبابية الغيوم التي تحلق فوق سهل تهامة فيما يلي التلال.

تقع كتلة العُر الآن ناحية الجنوب الشرقي من موقعنا، يقع جرف بارز يسمى قعبة على النهاية الغربية للسلسلة، وهي سلسلة مرتفعة وتنحدر سفوحها الكثيفة الأشجار إلى جانب وادي حربرب الأيسر. نستطيع الآن رؤية شريط الحدود وهو يجري من عمود حربرب إلى جرف قعبة ثم يعبر سلسلة عفرة بالقرب من قلعة جوار (قوار) أم وضف. لا نستطيع رؤية أي شيء فيما يلي ذلك، غير أننا في موقع تتداخل فيه المساحات القبلية على الجانبين في شرائط معقدة. يفصل عمود ملسة الحدودي -مثلاً- بين الخالديين والعزاويين على الجانب السعودي، وبين عنصر البطين التابع لبني منابة، وظل العياشين إلى الخلف من وراء نيد أم رزم، والتي هي نقطة لقاء ثلاثي. وتفصل علامة حربرب الحدودية ومعها العمود الحدودي لقرن مخلة بين الخالديين والعزاويين على جانب وبين عناصر العُر التابعة لبني منابة على الجانب الآخر، لا يبدو أن هنالك خطاً أرضياً يفصل بين الخالديين والعزاويين.

كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف صباحاً (١٤ يناير) عندما بدأنا نسترجع خطانا إلى وادي حربرب لمواصلة مسح الحدود. يتصل الوادي على مسافة الميل الواحد تجاه أعلى الوادي مع العُر عن طريق مسيل واسع لشعيب كفر والذي بعده بقليل تركنا المجرى، لنعترض مخترقين أرضاً ذات سلاسل كثيفة الأشجار ومتدحرجة تمتد من الخلف من جانبه الأيسر، مساحة غير منسقه ذات شست مائل، يترتب على زاوية ٢٥ أو ٣٠ درجة من ناحية الغرب إلى ناحية الشرق. وصلنا إلى العمود الحدودي قرن مخلة، وذلك بعد أن تتبعنا القمة لإحدى هذه السلاسل

الجبلية، سالكين مسيل خرشة (أيضاً من العُر) الذي يمتد على طول قاعدة الجانب الشرقي، يقع عمود قرن مخلة إلى الجنوب الغربي من عمود حربرب الحدودي، الذي يوضع بأسلوب مماثل على الجانب الأيمن لشعيب لهب بالقرب من التقائه مع الوادي الرئيس.

لقد أوضحت من قبل أن عمود حربرب معترف به رسمياً من كلا الطرفين عند إحدى نهايات الأرض المتنازع عليها تماماً كما تم الاعتراف بنيد أم ضراط على النهاية الأخرى. بناءً على العلامات على الشريط التي يطالب بها الخالديون، فهي تحمل الرقم ١٠٣س، مع وجود علامتين معترضتين فقط في كل من محنب أم باحة وحنكار، فهي بالرقم ٩٩ ي في حساب اليمن. لقد اخترت الرقم الأكبر للملاءمة في مواصلة التسلسل العددي مع الحذر بأنه إذا تم قبول مطلب بني منابة، سيكون هنالك أربعة أرقام يتم إسقاطها من العدد الإجمالي لعلامات الحدود. مهما كان ذلك، فإن قرن مخلة، التي ترتفع إلى ٢٥٥٠ قدماً فوق سطح البحر، تصبح هي العمود الحدودي الذي يحمل الرقم ١٠٤.

دخلنا الجانب الأعلى من شعيب كفر بعد أن هبطنا من السلسلة على الجانب الغربي. ثم واصلنا السير فيه حتى مجراه العريض، وكنا في صعود وارتفاع متواصل. مررنا هنا بتركيب بنائي غريب. اتضح فيما بعد أنه فرن بدوي أو المقوجة التي يستخدم لاستخلاص الراتنج بحرق شجيرات مختلفة في هذه البلاد كثيفة الغابات. يستخدم الراتنج لعلاج جمالهم من الجرب وغيره من الأمراض الجلدية. يمتد المجرى الآن من قرن مخلة إلى حيث ينحدر مجرى جيف ويتحد معه على طول الخط الحدودي، الذي يمتد مباشرة من قرن مخلة عبر البلاد وإلى أعلى سفح قعبة إلى قمته (رقم ١٠٥) والتي فوقها لم تر لجنة الحدود ضرورة

لإقامة عمود حدودي، وضح السبب لذلك حينما بدأنا التسلق للسفح الكثير الأشجار، على شريط مسيل جيف. كان شديد الانحدار وصعباً لأبعد الحدود، وكدت أن أقنع نفسي بالتوقف عن الصعود إلى أعلى أكثر للقمة الفعلية، حينما وصلنا إلى مضيق عند قاعدتها، حوالي ٢٠٠ قدم أسفل القمة وعلى السلسلة التي تربطه مع عرن العُر الكبير وتنحدر من طرفه الشمالي وكان المضيق نفسه على ارتفاع ٣٣٠٠ قدم وعليه تكون القمة من فوقه حوالي ٣٥٠٠ قدم.

تقع قعبة ناحية الشمال الغربي من العُر، وتنحدر انحداراً شديداً على الجانب البعيد من المضيق مع ميل شديد الانحدار، ويتفلطح عند قاع الدائرة التي تكونها السلسلة في واد عريض قصير يسمى شعيب مجنة. يتصل هذا المجرى قليلاً أمامنا وناحية الجنوب الغربي، مع آخر يقبل من العُر ويسمى شعيب قمحة، ليكون وادي عفرة، الذي، كما ذكر أعلاه، ينساب إلى قاعدة السلسلة التي تحمل الاسم نفسه ليتصل مع ضمد. تكون سلسلة عفرة هذه الحدود بين بني حريص الجنوبية على جانبها الجنوبي، والخالدي إلى الشمال ثم إلى قلعة جوار وضف المدمرة، بينما تكون على الجانب نفسه الحدود الجنوبية لأهل العُر (بني منابة). تكون الأطلال تبعاً لهذا هي موقع لقاء ثلاثي بين كل من حريص وخالدي والعر. يسمى الاتصال الفعلي بين قمحة ومجنة لتكون عفرة باسم أم ثلمة، تشتق من حقيقة أنه موقع شرب، وكان هذا هو مكان معسكرنا لقضاء الليل، على الرغم من أنه بقي علينا الكثير من العمل قبل أن نستقر أخيراً لننال الراحة.

يقع العمودان الحدوديان التاليان أسفلنا وعلى جانبي رأس شعيب مجنة عند قاع مسيل شديد الانحدار يهبط من المضيق، ويبتعد الخط الحدودي بينهما عن الجزء الأسفل للوادي في أرض الخالديين ويكون الجزء الأعلى تابعاً لمقاطعة العُر

في اليـمن. وصلنا بعـد هبوط يعـادل ٥٠٠ قدم أسـفل المسـيل، في طريقنا إلى مجنة، إلى بقـايا عشة دائرية مبنيـة من الحجر، بقـيت منها طبقتـان فقط -ولربما كانت برج مراقبة أو مركز حـراسة- إلاَّ أنه لا حاجة لها الآن لإنذار وتحذير سكان قرية مجنة أسفل السفح بالخطر الذي يترصدهم به الأعداء.

كانت قـرية صغيـرة من عشش حـجرية أو من القش (الوتل) وتسـمى قفلة وتسكنهـا عناصر شـبه بدوية من الخـالديين والعزاويين وآل أم شـيخ (بني منابة)، كلهم يعيشـون معاً في وئام فوق أرض العُر. تقع على ارتفـاع ١٠٠٠ قدم أسفل المضيق وتشتـمل فقط على حوالي ١٢ عشة، وقد قـوبلنا هناك حين وصولنا بكرم فيـاض في التعـبيـر عن التقـدير أبداه لنا امرأتان وبعض الأطفـال -ذلك لأن كل الرجال كانوا غائبين في أعمالهم، وقد أحضرتا لنا أباريق القهوة وقحفاً كبيراً مملوءاً باللبن الرائب، ونحن جلوس تحـت ظل شجـرة كبـيرة وتحـيط بنا الماعز والضـأن وكلاب القـرية، قمت بدفع أثمان ما قـدم لنا من كرم في وقت متأخـر من اليوم بحرية في الـدفع أكبر لقـاء المواد التي أرسلت إلى المخيم -لم نضـيع الوقت تحت الظل، بل سرعان ما واصلنا السير تتبـعنا الكلاب النابحة إلى مسافة، والتي كانت صامـتة حـينما كنا بالفـعل داخل القرية، وذلك بمتابـعتهـا لنا فوق سـفح منحدر صعب، على الجانب الأيمـن لنتفقد عمـود حرف أم أعباد، وهو عبـارة عن كومة تعيسة من حجارة في حوض ضحل يجـري فوق قمة العرن الذي ينحدر من سفح قعبة.

كان هذا هو موقـع العمود الحدودي رقم ١٠٦ عند ارتفـاع ٢٧٠٠ قدم فوق سطح البـحر وحـوالي ٤٠٠ قـدم فوق مـستـوى القـرية. يقف إلى الجنوب من موقـعنا، وعلى شريـط يترك القريـة إلى اليسـار - داخل أرض يمنية -، العـمود

الحدودي التالي فوق جرف من شست أسود يطل على القرية ويسمى غبس، وهو الذي يحمل الرقم ١٠٧ وارتفاعه ٢٥٥٠ قدماً.

لم يكن هنالك ما يثير الاهتمام في هذين الموقعين اللذين قمنا بزيارتهما بعد مشقة. تعرج بنا شعيب خرق أثناء هبوطنا من الموقع الثاني، وهو رافد من روافد مجنة حتى وصلنا إليه وتسلقنا إلى قمة الربوة المرهقة في أكثر المناظر بؤساً لجبال سفحية حرقت الشمس صخورها. هبطنا حوالي ٢٠٠ قدم من غبس إلى المسيل ثم صعدنا أعلاه إلى ١٠٠ قدم إلى أسفل التل الذي شمخ إلى ارتفاع ٢٩٠٠ قدم فوق سطح البحر، وجدنا عند قمته بعد زحف خطر، ضرباً من الزريبة من بقايا الحروب القبلية القديمة ولم نجد عموداً حدودياً. لقد ثبت بعد التحري أن لجنة تعليم الحدود التي عهد إليها بمهمة تعليم الحدود، حين وصلت إلى المنظر الجميل لمجنة اكتفت بالنظر من بعد، وللزريبة اكتفت بذلك أيضاً ورأت أنه يؤدي وظيفة العلامة ولا ضرورة للعمود. ولم يكلفوا أنفسهم حتى بإرسال أحد الرعاة ليبني بعض أكوام الحجارة، وعليه فقد تم تسجيل الزريبة وتحمل الرقم ١٠٨ في قائمتي.

لقد ذكرت لجنة الحدود هذه كثيراً في صيغة المجموعة، ولعله من المفيد للتاريخ أن أذكر أسماء الأفراد. كان لكل قسم من الحدود بالطبع طقمه الخاص به من المسؤولين عن تحديد الحدود، غير أن أولئك المسؤولين عن هذا الجانب بالذات الممتد من بئر أم شرح إلى سهل تهامة كانوا: من الجانب السعودي أبي مسمار من الشرطة، والذي كنا قد قابلناه في ظهران، كممثل رسمي، وعلي بن فرحان من آل سعيد، ويحيى بن جبران من عزة، وعلي بن يحيى (ابن يحيى أم شريف) من الخالديين، وأحمد بن حسن أيضاً من الخالديين، وحسين بن سالم من آل قتيل

(خالديين) وعددهم ستة، ومن الجانب اليمني، جارالله بن جمعان من سحر، ومفارح بن سليمان من العُر، (بني منابة)، وعلي بن حسن أبو طاقة من آل أم شيخ وفرحان بن عياش من عياش (بني منابة) وعددهم أربعة. لا يمكن القول بأنهم لم يضعوا خط الحدود في وضوح تام من النهاية إلى الأخرى غير أن الأسلوب الذي أدوا به العمل، مع تحاشي العمل إلى أقصى حد والإزعاج، لا يستحق الإطراء.

لقد استمتعنا بالنسيم البارد الذي هبَّ من ناحية الجنوب الغربي، إذ كان تسلقنا غير مريح فوق هذه التلال، نتعرج في التجاويف وبينها، وكنا نتوقف على قممها، بينما إلى البعيد في سهل تهامة، وقد بدا لنا وكأن عاصفة رملية كانت تهب هناك، كان الضباب كثيفاً مما حجب الرؤية في ذلك الاتجاه. كان المنظر في التلال من حولنا بصفة عامة مألوفاً، ومن هذا التل تمكنت ولأول مرة من رؤية قرية داخس الجميلة إلى يسار تل (طوالة) على سلسلة البطين، ومسجدها البارز الأبيض اللون. كان اتجاهنا إلى الجنوب من عمود غبس الحدودي، بينما كان عمود جوار وضف الحدودي، بجوار القلعة المدمرة، التي سنقوم بزيارتها غداً، يقف فوق سلسلته ناحية الجنوب الغربي. تجاوزت الساعة الخامسة مساءً حينما فرغنا من مسحنا من خرق وهبطنا إلى أرض الخشن المتموج الصخري الذي يفصله عن مجرى وادي قمح.

لقد استغرق وصولنا إلى قمح نصف الساعة وكان مجراه رملياً، عريضاً، وكثيف الأشجار، وهبطنا من عنده إلى العمود الحدودي التالي وهو عمود ضبرة أم (ثبرات) مضس (رقم ١٠٩ على ارتفاع ٢٢٠٠ قدم). كان هذا الوادي مميزاً بوفرة غطائه النباتي وبحجم أشجاره، معظمها آصم وشرح غير أن أشجار الضبر عند

عمود حدودنا كانت عظيمة ذات ظل يعقد تحتها مجلس القرية أو يرتاح فيه قطيع أغنام. كان العمود نفسه مسلة جميلة يرتفع فوق كومة حجارة واضحة المعالم، وكانت هنالك عشة راعٍ منفردة على الجانب السعودي للحدود وقريبة جداً من الشجرة.

لاحظنا، قبل وصولنا إليها، مجموعة صغيرة غير أنها تثير الشكوك من البدو التابعين لفرود وهم يتجولون بجوار مسيل جانبي، كأنما كانوا ينتظرون حلول الظلام لتنفيذ أمر سيء يجول في نفوسهم. انزعج كل من يحيى بن جبران ويحيى أم شريف، اللذين هبطا معي هذه المرة للمشاركة في مسيرة هذا اليوم، لهذا الظهور غير المتوقع الذي لا نرحب به، وذلك أثناء ما كنا جلوساً تحت الشجرة، ورجاني كلاهما ألاَّ أتجول بمفردي دون حراسة، كما كانت عادتي في المعسكر ومعي البندقية وشبكة صيد الفراشات.

لم يكن هنالك شك في هذا المساء، وذلك لأن الظلام قد أطبق بالفعل، حينما وصلنا إلى فم وادي مجنة واستدرنا لنلحق برفاقنا في المعسكر فوق أرض خضراء لطيفة مطعمة بأشجار العلب ويقع بين الجانب الأيسر لمجرى السيل الفعلي، والذي لا يزال مبللاً في بعض أجزائه بسبب الأمطار الأخيرة والسيول، وبين السفح الكثيف الأشجار لعرن قعبة، الذي نهض فيما يليه إلى أرض السفوح الجبلية التي نتجول فوقها الآن. كنا هنالك على ارتفاع ٢١٠٠ قدم فوق سطح البحر وكان الندى كثيفاً أثناء الليل، إلى جانب أن فمه يصب في وادي قمح ليكوِّن وادي عفرة، فإن وادي مجنة، الذي لا يزيد طوله عن الميل الواحد محاط تماماً بسفوح قعبة الكثيفة الأشجار وذات العرنات التي تبرز على الجانبين. كانت مساحة تشبه الكمثرى في الشكل، وكانت نهايتها السميكة تجاه أعلى الوادي،

وكما يدل عليهـا الاسم، فهي عبارة عن جنة صغيرة مليئـة بالطيور. كانت طيور الماء توجد بوفرة في السفوح الكثيفة الأشجار، وقد تمكنت من الحصول على طائر السمنة الصـخرية، وطائر الصَّرد المحلي وطائر أبيض العين. وكانت طـيور الثرثار والبلابل توجد بوفرة أيضاً وكانت نداءات طيور الماء في الصباح الباكر شجيةً.

كان معـسكر مجنة مركز لقـاء لتغييـر المرشدين وجمال العـفش. لقد أرسلنا الرسائل، قبل ليلتين من معسكرنا عند ينابيع وغرة الحارة إلى أمير العارضة، نخبره بموعـد وصولنا وطلبنا منه إرسـال ممثلين لبني حـريص الذين سندخل أراضيـهم، وحيـوانات جديدة لحمل العـفش. أصابنا الفزع حـينما وصلنا ولم نجـد أحداً في استـقبـالنا، وبدا لنا أننا سنمكث هنا لفتـرة غيـر محدودة. قـمت بوداع كل من حتروش وعلي بن سلمان والشيخ زيداني وحـردان في معسكر حربرب. لقد كانوا لطافاً ورفاقاً مثيرين للاهتمام وكنت أسفاً أن أراهم يذهبون، غير أنهم كانوا سعداء بأن يجدوا حرية عـودتهم إلى أوطانهم، وكنت أتمنى أن يكونوا مقتنعين كـما يبدو عليهم، بالمكافآت التي يستحقونها؛ مقابل خدماتهم التي لا تقدر بثمن.

لم يظهر أحد في الصـباح. وكسبت الوقت وخرجت ومعي بندقـيتي وشبكة صيد الفـراشات إلى الغابات من حولنا على مـسافة أسفل وادي عـفرة، لم تظهر شخصيات الأمس المشبوهة حياة أو نشاطاً، وكان كل ما قابلته في أثناء تجوالي هو مجموعة من الصبية الخالديين، يقومون بمراقبة قطيع مختلط من ضأن أبيض وماعز أحمر اللون حول مـشرب نبع في جرف كثيف الأشجـار، منحدر صخري يدخل إلى الوادي من سلسلة وضف. جلست أتجاذب معهم الحديـث لفترة واكتشفت أن لديهم معلومات كـثيرة. لقد أخبـروني -كمثال- بأن سفـوح العُر وسلسلة البطين المجاورة مأهولة بجماعـة آل يزيد، ومشهورة بينابيعها العديدة، غـير أن قرى بقية

البطين وقرى عياش يعتمدون على مياه تخزن في أحواض، حفرها الناس في الصخر. ذكروا لي أن هذه المناطق تزرع البن والموز والتبغ بكميات كبيرة إلى جانب المحاصيل الحبوبية العادية من دخن وقمح وشعير في حقولهم ذات المساطب. كان مشرب الماء هذا مكوناً من بركة صخرية كبيرة أسفل نتوء تظلله شجرة فرفار ضخمة، والتي كانت على أفرعها واحدة من الأعشاش الضخمة لأبي مطرقة. يحمل كل من الجرف ومشرب الماء اسم موارد.

كان مريحاً لنا جداً بعد الأيام الصعبة المرهقة، أن نقيم هنا في هذا الموقع الجميل للبلاد بلا عمل معين. رأيت وقد اقترب الوقت من الظهيرة أن أعود إلى المعسكر لتناول وجبة الغداء. أخذتني الدهشة وأنا أخرج من داخل الغابة عند الجرف إلى المجرى أن أشاهد ثلاثة نصف عراة وهم يحملون بنادقهم بالطريقة المعروفة، أفقياً فوق الأكتاف ومن خلف الرقبة.

انصرف تفكيري مباشرة إلى رجال الأحراش في الأمس ولم يكن هنالك مفر من مواجهتهم. وتجلى الأمر، لراحتي، حينما علمت أنهم طلائع القافلة التي جاءت إلينا من العارضة ومعسكر بني حريص، رأيت خلال دقائق الحمير التي كانت في المقدمة من المنحنى إلى البعيد مع اتجاه أسفل الوادي، وأسرع جمعنا وكنا أربعة أشخاص إلى المعسكر لنبلغ رفاقتنا بالأنباء السارة. ثم الإسراع بإعداد الطعام وما هو بالوقت الطويل حين دخلت قافلة الحمير إلى وادينا ووصلت إلينا محملة بشحنات ملأتني سروراً.

كان هنالك صندوقان لشحن البارافين وهما ممتلئان بالبريد الخاص بي، والذي كنت أنتظره بشغف –وأشياء أخرى– تسعة أسابيع من بريد الوطن تغطي الفترة من

منتصف سبتمبر إلى منتصف نوفـمبر، خطابات وصحف وافرة وشحنة مدهشة من سجائر برما وتبغ الغليون. يبدو الأمر كأنه لا يصدق بعد كل فترة الانتظار الطويلة هذه، كما ازداد سروري أنني أرحب بعودة ابن هـذيل، الذي غادرنا قبل اسبوعين مما دعـاني لإحضـار بطارية للراديو، الذي منذ تلك الحـادثة الوحيـدة التي تعطل فيها، ظل يعمل بصورة طبيعية حتى اليوم.

كان كل شيء أكثر مـن جيد الآن، وقررت أن أحتفل بالمناسـبة بالإجازة ليوم واحد، وذلك بتـأجيل مغـادرتنا إلى الغد ونستـرخي للظهيـرة والمساء وإلى وقت متـأخر من الليل لألتـهم بريدي مع شاي وسـجائر برما، ولا بد أنـني قد دخنت نصف علبة في ذلك اليوم، لأظل نشيطاً. ارتكبت خطأ خلال هذه الفرحة بأن قد فات عليَّ أن أملأ نابض ساعة الكرونوميتر، وكانـت النتيجة أنني اكتشفت أنها قد توقفت عند الوصـول إلى المعسكر في المساء التـالي. كان هذا خطأ صغـير، ذلك لأن إذاعة القـدس كانت تذيع شـارات الوقت مما وضع الأمـور في نصابهـا، كان هنالك الكثير من الحديث بين الأصدقاء القدامى والجدد في معسكرنا، غير أنني لم انتـبه لـذلك، بل تناولت وجـباتي بمفـردي لكي أواصل قـراءة خطابات الأسـرة والصحف. لم أكن في عصر ذلك اليوم وفي مـسائه وليله في الجزيرة العربية، لا يمكن أن يحس بمتعة مثل هذا الحدث من لم يمر بالتجربة ذاتها.

صحـوت عند الصباح على صـوت طيور الماء في الغابـات بالقرب منا، ولم نضيع كثيـراً من الوقت في إعداد الحيوانات الجديدة لحملها وأسيـادها فيما يخص أسرار نقل الـعفش الثمين، الراديـو، والمزواة، وأدوات أخرى، سيـرافقنا شـيوخ الخالديين والعزاويين حتى المعسكر التالي؛ وذلك لأننا لم نفرغ تماماً من مناطقهم،

غير أن الأمير عبدالله بن شرقة سيغادرنا ليعود إلى أعماله في القهبة، والتي تغيب عنها مدة أسبوعين. لم يفكر إطلاقاً، على الرغم من صراعه المتواصل مع الحمى في الابتعاد عنا أو في الانهزام للحمى وكنت بالتأكيد شديد الأسف لوداعه. لقد انطبع في ذهني كحاكم مثالي بأخلاقه الشجاعة المتواضعة، يتولى الإشراف على هؤلاء الأفظاظ المتوحشين الذين يتصرفون كالأطفال أحياناً، وكان تدينه العنيف يعزز من سلطته عليهم. يبدو أن بني مالك كانوا تحت السيطرة تماماً وكانوا خاضعين برغم كل شهرتهم السابقة بكونهم مزعجين ويصعب التعامل معهم.

لا بد أن يعزى نجاح ترويضهم للحاكم في تعامله معهم بأسلوب لطيف وباستثناء حتروش، فلا أحد من الشيوخ الذين كنت قد رأيتهم يبدو أنه مبرز. كان كل من علي بن فرحان ويحيى أم شريف، ويحيى بن جبران وشقيقه محمد ناعمين بلا مقدرة على الاحتمال، يرغبون دوماً في الراحة حتى في قمة مسيرتنا الساخنة، يرجفون من البرد في إحدى الدقائق ويهرعون للاختباء من الشمس في دقيقة أخرى كأنهم مجموعة من الأرانب، ودائماً يستجدون الطعام، لم أشعر بالأسف بأن هذا هو آخر أيام مرافقتهم لي، وكنت سعيداً أن أراهم يغادرون المعسكر في الساعات المبكرة من صباح الغد غير أنه، مع كل المآخذ التي أبدوها، فلم يكن بمقدوري أن أفعل شيئاً بدونهم ورافق كلمات وداعي لهم شيء أكثر صلابة يحملونه معهم في حقائبهم. لقد كانوا رفاق جولاتي مدة أسبوعين أو أكثر فوق هذه الجبال، ونحن الآن نفترق بلا مجال للقاء بالتأكيد.

ضرب فريقنا مسيرته فوق وادي قمح إلى أعلى السفح الشديد الانحدار للعرن الصخري الكثيف الأشجار الذي يقود إلى أسفل إلى سلسلة عفرة بين

مسيلي موارد، على يميننا، ومليح على يسارنا، بينما اتجهت قافلة العفش لتسلك طريقها المناسب، لتصل إلى موقع معسكرنا التالي في الوادي. يرتفع رعن مسلة هذا إلى ٧٠٠ قدم إلى قمته على حافة رف يرتفع فيما يليه إلى قمة عفرة، التي وصلناها بعد تسلق استمر ساعة ونصف الساعة عند العمود الحدودي لجوار الوضف (رقم ١١٠) على ارتفاع ٣١٥٠ قدماً فوق سطح البحر. يصل خط الحدود مباشرة إلى هذا الموقع من علامة ضبرة مضس على جانب وادي قمح، وتكشفت الأطلال، التي كنا قد رأيناها على بعد، حين وصولنا إليها عن ثلاثة أبنية تشبه القلعات محطمة، بنتها قبيلة بني حريص لحراسة حدودهم، والتي تساير حدود الخالديين غرباً إلى هذه النقطة ومع العُر (بني منابة) شرقاً.

تتكون قمة السلسلة على جانبها من شريط من ألواح شستية شبيهة بالمنشار موضوعة على زاوية ٤٥ درجة من جهة الغرب ناحية الشرق. لم تكن العلامة الحدودية بجوار الأطلال عموداً بل شريطاً من ألواح طولها ١٢ قدماً وبارزة إلى قدمين فوق السطح. تنحدر السفوح أمامنا إلى أسفل إلى وادي كثيف الأشجار تحفه على الجانب البعيد سلسلة كل من حيران ومشرق ولكنه ينفتح إلى الخارج ناحية الشرق، ويكشف عن لمحات من الجانب الجبلي من وادي جازان، وهو يجري بين سلسلة عالية تسمى مشوى على الجانب البعيد وقريباً من سلسلة فسوة السفلى وتقف في الاتجاه نفسه قمة فضّة التي يوجد فوقها عمود حدودي عند مضيق سلسلتها التي تنحدر إلى أسفل إلى وادي جازان.

ألقينا نظرة على التركيب القبلي المتباين الذي يقع أمامنا الآن ويختلف عن الذي وراءنا، وقد أشار مرشديٌّ إلى سمات عديدة في أراضي كل من قبائل

العبادله وآل مضهر وقيس، ويمانية ومجموعات أخرى، دون ذكر شيء عن الكتف اليمني العظيم المكونة من قبائل رازح وحرم وناضر. أمكننا أيضاً رؤية أجزاء من العُر، لم نكن قد رأيناها من قبل، وبعض القرى الجديدة. استطعت أن أتعرف في كتلة هذا الجبل الوحيد على ما يقارب ١٦ قرية مميزة ولا بد أن يكون هنالك أكثر من هذا العدد على السفوح المعاكسة وفي الانطواءات الجبلية وفي العرنات. كما ذكرت لي أسماء ما لا يقل عن ١٢ قرية تابعة لقبيلة عياش، وأكثر من ذلك على سلسلة البطين، وكان انطباعي العام أنه يوجد ما لا يقل عن ١٠٠ قرية كبيرة وصغيرة في مرتفعات بني منابة ويقدر عدد السكان بحوالي ٥٠,٠٠٠ نسمة. ويعتقد التراث المحلي أن قمة جبل العُر يسكنها الجن.

زارنا بعض الرعاة حينما كنا جلوساً بجوار أطلال وضف، ربما كانوا من منطقة فيفاء. كانت قصتهم أن أحد أقربائهم قد توفي حديثاً وكان يزمع أداء فريضة الحج إلى مكة، غير أنه لم يتمكن من ذلك لا بنفسه ولا عن طريق الوكالة لعدة أسباب. وأصبح الآن ميتاً، ويود أصدقاؤه أن يتأكدوا من دخوله الجنة بترتيب زيارته بعد وفاته إلى مكة عن طريق الوكالة. كان هذا في عرفهم مسموحاً به، ولست متأكداً من الموقف الشرعي لمثل هذه الحالة[١]، غير أن مذهب الشيعة يبدو أكثر تسامحاً في هذه الأمور، ولا يوجد أي شك في العلاقات الضرورية بين قبائل تهامة هذه وبدع الزيديين. قام أصدقاء وأقارب المتوفى بجمع بعض الأموال لتسديد أتعاب الوكيل نيابة عنه، عرفوا أننا قد قدمنا من مكة وسنعود إليها وعليه كان

(١) الصحيح أنه يجوز لغير القادر على أداء فريضة الحج أن ينيب عنه من يقوم بذلك، أما الحكم لشخص بدخول الجنة من عدمه فهو راجع لله سبحانه وتعالى واسع الرحمة. (المراجعون).

حضـورهم إلينا لمناقشة المسألة. نـوى يحيى بن جبران أن يؤدي فـريضة الحج هذا العام على أي حال لشخصه هو، ويمكنه أن يتعامل مع أكثر من عدد من الوكالات كما يحب شـريطة أن يصير لكل حالة المراسيم المطلـوبة بدقة باسم الشخص الذي ينوب عنه. وتمت المعاملة فـي يسر، وأدى يحيى القَسَم للـقيام بالشعـائر المخلصة لمهمته هذه في الحال فوق سـلسلة وضف. أخذ يحيى وهو ممسك بيدي رئيس وفد الرعاة وبناءً على ما يمليـه عليه هذا الرئيس يكرر القَسَم تلو القَسَم بكل مـا يقدسه هؤلاء القوم البسطاء بأنه سيفعل كل ما هو مطلوب في حجته التالية – والتي تبقى لحلولها شهـران – وبعد الفراغ من أداء هذا القَسَم، سلمت إليه صـرة من الفضة، تحتوي على المبلغ المقـدر في حدود ٤٠ ريالاً، وقد قام بِعَدِّ ما فـيها من ريالات، للتأكد بأن السعر الكامل قد تم استلامه. وعاد الرعاة وهم مسرورون لمواصلة أمور حياتهم.

تمتد سلسلة عـفرة من جهة الجنوب الشرقي لتـتصل مع عرون العُر، ويسـتمر خط الحدود فوق قمـمها، ودائماً على المستوى نفسه، إلى حـيث العمود الحدودي التالي، أو بالأحرى، كومة من ألواح ملقاة مع بعـضها البعض فوق كتلة مائلة من الشست بجـوار بقايا حصن مبنى من ألواح مماثلة. كـان هذا هو الذي يحمل الرقم ١١١، وكنا عند ارتفاع ٣٢٠٠ قدم فـوق مستوى سطح البحر. كـان التسلق فوق السفـوح من الوادي عملاً صـعباً، إلا أنه كان لـطيفاً فوق هذه السـلسلة مع نسيم لطيف وسحب كثيـرة من حول المرتفعات المجاورة. هبطنا الآن على السـفح البعيد وسرعان ما وصلنا إلى رأس مسيل مجـمعين وتجري بجواره الحدود إلى بركة غدير حصر أم غيشانية، مسطح مائي كبيـر على هيئة النجمة في خزان طبيعي عميق من جرانيت رمـادي، تآكل حتى أصبح أملـساً، عند موقع انحـدار إلى ٢٠٠ قدم من

الشست، والذي لا بد أنه يقوم بعرض شلال رائع خلال السيول. لم تكن المياه هنا مستديمة لأنها تعتمد على تكرار السيول وكذلك حال برك أخرى صغيرة في المسيل، وبالرغم من أنه لا يوجد عمود حدودي هنا فإن هذه البركة قد تم الاعتراف بها كعلامة حدودية، وأعطيت الرقم ١١٢ في التسلسل. وتقع على بعد ٨٠٠ قدم أسفل قمة عفرة وحوالي ٢٤٠٠ قدم فوق سطح البحر.

يواصل المسيل اتجاهه ناحية الجنوب الشرقي لما يزيد على الميل الواحد، ليتصل مع قفلة وهو مجرى ينحدر من العُر إلى وادي أجبه الذي هو رافد لوادي جازان. يُكَوِّن شريط سلسلة عفرة من العُر وغرباً فاصلاً مهماً بين وادي ضمد وجازان. كان هنالك عدد من الرعاة التابعين لأم شيخ مقيمين بجوار هذه المياه، عند مرورنا الذي كرهته كلاب رعيتهم.

يقع المجرى بالكامل في الأراضي اليمنية، إلى أسفل البركة، ويعتلي خط الحدود سفوح سلسلة نصيب إلى قمتها بارتفاع ٣٠٠ قدم ومن ثم إلى قمة بقرة المنخفضة التي تطل على المجرى من الغرب، ثم تتجه الحدود بمحاذاة الجانب الأيمن باتجاه مجرى قفلة. لا يوجد عمود حدودي على هذه القمة الذي يمكن، إعطاؤه الرقم ١١٢ أ، على ارتفاع ٢٧٥٠ قدماً فوق سطح البحر. عبرنا القمة عن طريق مضيق على الجانب الأيمن، حيث هبطنا من مجرى بقرة إلى شعيب شوامي، ويعد الأخير امتداداً لقفلة أسفل العمود الحدودي عند نقطة تقاطعه مع معجمين والأخير، وكذلك مجرى آخر من الجانب البعيد يدعى جهيرة. وهكذا يشكل وادي شوامي، أسفل قفلة، الحدود الدولية وكذلك الحدود القبلية بين بني حريص (سعودي) وأم شيخ (يمنى)، كما يشكل معجمين الحدود بين سلسلة عفرة وقفلة. توجد على مدخل بقرة قريتان صغيرتان، هما صبران ومقام على جانبي مجرى

شوامي، التي يسكنهـا عناصر من أم شيخ اليمنية، علـى الرغم من أن صبران تقع في الأراضي السعودية.

توجهنا إلى عمود قفلة الحدودي رقم ١١٣ بعد أن قمنا بفحص هذه الترتيبات المعقـدة المتشابكة للقبـائل والأنهار، ويعد عـمود قفلة الحدودي واحـداً من أفضل الأعمدة في كل الشريط، ويشـمخ إلى ارتفاع ستة أقدام فوق هضـبة هرمية بارزة فوق وادي شوامي على رأس نهاية انحناء على شكل حرف S - انحناء مزدوج - للمجـرى، يجري مسـيل بقرة إلى المجـرى عند نهايته الـسفلى. كان هذا كـومة حجارة حدودية قديمة وقبلية، وقد تم تحسينه كثيراً وتم بناؤه بصورة متينة بأمر لجنة الحدود، التي تستـحق أن يشاد بها حينما يكون لذلك مـبرر كافٍ. هبطنا هنا إلى ارتفـاع ١٩٠٠ قدم فـوق سطح البحـر، وهذا هو أول موقع في كل الحـدود يقل ارتفاعـه عن ٢٠٠٠ قدم. قمت بتصـوير العمود الحدودي احـتفالاً بهذه المناسـبة ويقف بجواره ثلاثة أعـضاء رئيسـيين. وهم عبدالرحـمن العسيـري ممثل الحكومة الرسمي الذي أوفد من العـارضة، وبالمناسبة فهـو من دماء عربية تركيـة مختلطة، وذلك لأن والده قـد خدم تحت نظام الأتراك في أبـها وتزوج من امـرأة محليـة، وموسى بن مفرح من قبيلة آل عمـر تحت قسم بني حريص، ومحمد بن علي من قبيلة أم شيخ.

يحمل منحنى الوادي غيلاً لطيفاً جارياً كان ينساب في بطء، حينها فوق بطن رملي حصوي. كـان مملوءً بالأسماك الصغيرة وقـد قيل لي إن هذا الوادي قد بدأ من مسافة بعـيدة في المجرى. توقفنا قليلاً هنا للاغتسـال لأجل صلاة الظهر، قبل مواصلة المسيرة إلى أسفل إلى العمود الحدودي التالي رقم ١١٤ عند مدخل مسيل حوك من المرتفعات على يسارنا على مسافة ١٥٠ قدماً أسفل من موقعنا. لقد كان

مجموعة صغيرة من كومة حجارة متوضعه فوق جرف من جرانيت رمادي يبرز قليلاً فوق الوادي من الجانب الأيسر للوادي قليلاً أعلى من موقع الالتقاء. واجهتنا مرحلة صعود صعبة بعد أن عبرنا الرافد، على السلسلة المقابلة في طريقنا إلى عمود دقيق الحدودي الواقع فوق قمتها ويطل على مسيل سلحات على الجانب البعيد، الذي ينحدر من سفوح فضة العالية الكثيفة الأشجار. يقف عمود دقيق الحدودي رقم ١١٥ فوق مستوى الوادي عند ارتفاع ١٩٠٠ قدم فوق سطح البحر ولكنه لا يسيطر على منظر شمولي. تأخر الوقت كثيراً وأسرعنا أسفل السفح البعيد إلى داخل مجرى سلحات وسرعان ما وصلنا إلى موقع لقائه مع وادي ثروة المهم -أيضاً ينحدر من فضة- على ارتفاع ١٦٠٠ قدم فوق سطح البحر.

وصلنا بعد مسيرة عشر دقائق فوق مجرى ثروة إلى موقع التقائه مع وادي شوامي ليكوّن أجبة، وهو الموقع الذي اخترناه لمعسكر الليلة. كان رفاقنا قد استقروا بالفعل هناك، وقد اختاروا للمعسكر موقعاً جميلاً على سفح جانب الوادي عند موقع الالتقاء أو قليلاً أسفل منه. هبطنا الآن إلى ارتفاع ١٥٥٠ قدماً، وهو أدنى ارتفاع وصلناه عند موقع سوق أيبان فيما يلي فيفاء.

تغذي كتلة جبل العُر التي ترسل مجاريها إلى أسفل على جانبي سلسلة عفرة، كلاً من وادي ضمد ووادي جازان اللذين يجريان مستقلين عبر الجبل والسهل وينتهيان معاً في الدلتا نفسها أعلى ميناء جازان. يعد شوامي واحداً من الروافد المهمة لنظام جازان، والذي ينبع أصله الرئيس إلى الخلف في الجرف العظيم لمقاطعة صعدة، ويعرف في جزئه الأعلى باسم وادي معبر حتى ما يلي التقائه مع وادي عنة وحينها يصبح اسمه جازان. تكوّن أجبة الاستمرار المجرد لشوامي بعد تدفق ثروة. يذوب غيل شوامي الجاري في هذا الموقع، الذي كان

متـواصلاً من أعلى قفلة في الرمال، ويـصبح المجرى العريض المسطح جـافاً وهو يخرج من مـساره المحاط بالصـخور، ويدخل فراغ أجـبة الذي يشبـه الدلتا، التي يوجد فيهـا وعلى جانبي الوادي عدد من القرى الصغيرة التـابعة لبني حريص يقع أسفل معسكرنا، على الجانب الأيسر للوادي قسـمان من قبيلة محشرة، بينما تقف أطلال دود على الجانب الآخر منه بجوار تل مشرَّق.

لم تكن قشع وهي على الجانب نفـسه غير مجموعـة من عشش البدو، بينما على الجانب نـفسه تعلّم قـرية عورا مـوقع تدفق شعيب عـورا داخل أجبـة وكان شعـيب عورا هو الطريق الذي سلكته قـافلتنا وما هو إلاَّ مجـرد استمرار لشـعيب بقعـة، الذي ينبع من الصفـحة القريبـة من عفرة، وينحـدر عبر مـوقد من تلال منخفضـة، مشرَّق، جازان.. إلخ التي تفصلنـا عن وادي ضمد. لم يكن أي من هذه القرى أو التلال ذا أهمية، غير أن انكشاف الجبال يدل على أننا لسنا بالبعيدين من حافة سهل تهـامة، كما يوجد اختلاف بيِّن في الصـفة العامة للسكان في هذه البلاد المنخـفضة. لقـد مضى اللطف وأحيـاناً الإزعاج والتـبجح الذي اتصف به ساكنو المرتفعـات وحل مكانه إحساس بالضجر والكـآبة. ويعيش الناس في بيوت بائسة وقد بلغ بهم الفقر مداه.

كان يوماً ممتعاً بصفة عامة. كانت البلاد كثيفة الأشجار وبها الأشجار النموذجية والنمو التحتي للسفوح الجبليـة وكثيراً ما كنا داخل مدى رؤية أو سمع القرود، وهي تبحث عن الـثمار التـوتية بين جنبـات أشجار المظ والغـلفة. كان مـسيل بقـرة مميزاً بأشجار التـمر هندي (الحمرة) الجيـدة النمو إلى جانب برك شوامي الممتلئـة بأسماك المنوة. كان المرشدان التابعان لبني حريص ومعهما شـيخهما، موسى بن مفرح، غير

واضحين بصفة عامة فيما يخص جغرافية بلادهم بالرغم من أنني استطعت أن استخدم رجلاً من قبيلة أم شيخ – واسمه محمد بن علي – من بين الرعاة عند بركة حصر لأجل التعويض عن قصورهم، وقد وجدت لذلك ما يبرره، وذلك لأن المنطقة التي نتابع حدودها كانت بالفعل خالية من أي عناصر تابعة لبني حريص، وكانت مخصصة للرعي لآل فيفاء، وبني مالك، وقيس، وأم شيخ.

بعد أن استقر بنا المقام في المعسكر، حيث لحق بنا علي بن شنتف، شيخ قسم أكاوين الذي لم يلحق بنا في مجنة غير أنه حضر بصحبة قافلة العفش، ناقشنا الموضوع بصورة هادئة. يقف معي هنا الشيخان الرئيسان لقبيلة بني حريص، ويرجواني أن أرفع توصية إلى الحكومة السعودية باستبعاد كل هذه المنطقة التي تقع بين سلسلة عفرة ووادي جازان من إطار سيادة قبيلتهم ومسؤوليتها. لقد أخبراني أن شيوخهم جميعاً ولمدى ثلاثة أجيال قد غسلوا أيديهم بالأمر الواقع، عن الموضوع كله الخاص بهذه المنطقة الحدودية ولا يرغبون في أن تكون لهم صلة بها. لقد أحسوا بالحزن حينما كان موضوع الحدود الدولية تحت دائرة النقاش والمحدودية، إن هذه المنطقة قد تمت إضافتها إلى المملكة العربية السعودية، بحجة أنها كانت تاريخياً، وحسب الروايات المحلية أرضاً تابعة لبني حريص.

كان يمكن لمثل هذا القرار أن يكون غير مهم حسب وجهة نظرهم لولا حقيقة أن الحكومة السعودية، تبعاً لسياستها القبلية، قد أصرَّت على أن شيوخ بني حريص هم المسؤولون عن كل الأحداث المشاكسة فيما كان يعرف بالأرض التي لا يملكها أحد. كانوا يرغبون في التخلص منها تماماً، ولا يهمهم إن كانت قد سُلمت إلى الخالديين أو نقلت إلى اليمن أو اقتسمت بين الاثنين.

كانت حالة غير طبيعية بلا شك، ومطلب غريب يعرض في أمر حدود دولية. لا علم لي بنتيجة هذا الموضوع، غير أنه من غير المحتمل أن تكون فكرة تسليم هذه المنطقة المزعجة إلى اليمن قد أعجبت الحكومة السعودية. سيكون تسليمها الفوري حدث فريد في تاريخ العلاقات الدولية. غير أنه لا شك لديَّ أن شيئاً ما قد تم فعله ليخفف عن رؤساء بني حريص مسؤوليتهم عن منطقة هم حقيقة لا يتحكمون فيها ولا يستعملونها، وسيكون موسى العلي، تحت نظام الحكم السائد في ذلك الوقت، هو المسؤول عن إحضار القاتل أو دية الدم، فمثلاً يتم قتله بواسطة شخص من الخالديين، والعكس بالعكس. كان الشيوخ الخالديين يحسون بالاطمئنان في هذه الأرض أكثر من موسى وقد تعرضوا لغضبي الشديد عند بركة حصر بإصرارهم على رعاة أم شيخ الفقراء أن يعدوا لهم وجبة طعام. نهضت في اشمئزاز وذهبت ماشياً ناحية التل، بعد أن رأيت ما قد حدث، وكان يرافقني موسى ورجال قبيلته، غير أن يحيى أم شريف قد تخلف ليستمتع بطعامهم.

واجهنا حادث مؤسف آخر في معسكر أجبة، وذلك بغياب شيوخ قيس، الذين أرسلنا إليهم رسائل نوضح فيها حاجتنا إلى مرشدين وحمَّالين، لأننا سندخل جانبهم الحدودي الذي سنبدأ العمل فيه في اليوم التالي، كما أرسل إليهم أمير العارضة رسائل مماثلة، ويبدو أنها بلا فائدة، وقد دار الهمس في المعسكر أن الرجال لن يحضروا. كانت قبيلة قيس حقيقة في متاعب مع السلطات السعودية في العارضة، لم يسددوا زكاتهم ويبدو أنهم لا يرغبون في دفعها. هاجرت كل القبيلة من المناطق التي يمكن الوصول إليهم فيها في أرضهم ولجؤوا إلى الجبال، ربما عبر الحدود، حتى يكونوا خارج نطاق جامعي الزكاة والشرطة المرافقة لهم.

كانوا حقيقة مضربين وبسلبية شديدة، وأعتقد أنهم سيقاومون أي محاولات لإجبارهم. كان هنالك أمر آخر لم يهدأ بينهم وبين الحكومة سببه عدد من جرائم القتل التي وقعت في أرضهم والتي على ضوئها أُمروا بدفع دية الدم التقليدية في موعد محدد، وقد انتهى منذ زمن بعيد. كان الموضوع غير مقنعٍ من وجهة نظر الحكومة وحينما تم إرسال أحد الأفراد للتأكيد لجابر بن جبران بن حتلان أن زيارتي المزمعة لفحص الحدود لا شأن لها بمطالب الحكومة في أمر الزكاة والدية، عاد الرجل ليقول إنه لم يجد إلاَّ النساء والأطفال فقط في القرى والمعسكرات، ووضَّح أنه سيكون عليَّ أن أتوقف عن دراسة هذا الجزء من الحدود في الوقت الحاضر. كان أمراً مزعجاً ولكن لا مفر منه.

انصبَّ حديثنا أثناء المسيرة وفي المعسكر على أسلوب تنظيم القبائل في هذه المنطقة. ويتكون الجزء الجنوبي من قبيلة بني حريص من قسمين رئيسين هما: أكاوين تحت رئاسة علي بن مفرح بن حسين بن شنتف، وقسم آل عمرو تحت رئاسة موسى بن مفرح بن علي العمري. كان كلاهما موجوداً معنا. زعما بأن قبيلتهما تكون جزءاً من مجموعة اليحانية والذي اشتق من أصل مشترك يدعى يحنوي، المنحدرة من خولان بن عامر. واعترفا في الاتحاد الكونفدرالي بكل من بني مالك، وبني حريص الشماليين وآل فيفاء، والعبادلة، وقيس، وآل تالد، وآل جمعة، آل سلع – وتتكون تحت أقسام الجابرين والسفيانيين والوداعيين والمعنين والحريصيين –. ثم صنفا قبيلة قيس إلى ثلاثة أقسام هي: آل محتم تحت رئاسة حسين بن كردام، وآل علي تحت رئاسة شريف بن جبران بن دخنان، وآل فيضة، تحت رئاسة جابر بن جبران بن حتلان. وتقع طبقاً لقولهما، إلى الغرب من قيس كل من آل سلع والعبادلة. واعترف خبيرا حريص فيما يخص الفرود بما يلي مكوناً

للاتحاد الكونفدرالي: بالغازي، وحساب - شمال بالغازي - بني أم شيخ (الشماليين) وسحاليل وحروب والريث - وتقع الأربعة الأخيرة فيما يلي، شمال شرق بني حريص - وأم شيخ، (الجنوبية)، بني منابة - وتتكون من أم دوشة، وآل عامر وبني كثير، وآل سوار، وخولي، وعياش وآل لهب -، وآل غمر (اليمنيين)، ورازح وسحر. ويبدو أن هنالك الكثير من التساهل في التفسير المحلي للتقارب النهائي للعديد من هذه القبائل، وعامل النفوذ متداخل في معظم الحالات.

بدأنا عمل اليوم دون أن ننتظر فريق قبيلة قيس، تاركين أحمالنا للمواصلة فوق مجرى أجبة إلى الموقع المحدد للالتقاء في وادي جازان. تتبعنا خطواتنا السابقة التي تقودنا إلى موقعنا مساء الأمس في وادي ثروة، مارين بالتقاء سلحات ووصلنا، قليلاً بعد ذلك، إلى الموقد أو فرن حرق الراتنج، ويسمى موقد أم حيدر، وهو معترف به رسمياً علامة حدودية تالية رقم ١١٦ يلي علامة دقيق. كان ارتفاعنا عند هذه النقطة ١٥٠٠ قدم فوق سطح البحر، وواصلنا السير على الوادي الذي يكون الحدود، ويفصل بين بني حريص وأم شيخ. مررنا بعد ذلك بمجموعة صغيرة من بيوت البدو المبنية من الحجر وتبدو غير مأهولة إلاَّ أنها تنتمي إلى عناصر من قيس أم شيخ، غير أنها على الجانب السعودي (اليسار) لمجرى الوادي، ويطلق عليهم اسم حجاف ثروة.

ثم وصلنا بعد قليل إلى ماء ثروة وهو ثقب مائي في الرمال، محمي بحافة من بناء مفكك. صعدنا الآن إلى ارتفاع ١٦٥٠ قدماً، وواصلنا ارتفاعنا مع الوادي، ثم مررنا بموقع تدفق شعيب وجخة وهو مسيل ينحدر من سفح فضة على يسارنا عند ارتفاع ١٩٠٠ قدم، ثم تركنا المجرى يدور إلى أعلى إلى رأسه

عند فضة، وتسلقنا سفحاً سهلاً غير أنه كثيف الشجر إلى مضيق نيد أم ثروة فوق عرن ينحدر بشدة من قمة فضة عبر الحدود. وجدنا هنا العمود الحدودي (رقم ١١٧) عند ارتفاع ٢٠٠٠ قدم وتقع قمته على يسارنا حوالي ٥٠٠ قدم فوقنا. يحمل امتداد عرن فضة على يسارنا اسم صبة، وينتشر فوق أرض مرتفعة واسعة تجاه زاوية أجبة – جازان. وينحدر أمامنا تماماً ناحية الجنوب الشرقي، مسيل صخري شديد الانحدار، يسمى ثروة، إلى وادي جازان إلى البعيد من هنا والذي رأينا لمحة منه لأول مرة.

كان شمال وادي ثروة موقعاً جذاباً يميل في لطف فوق أرض شبه غابية، تكثر فيها النباتات العطرية التي تحلق فوقها الفراشات بأعداد كبيرة. كان الجو هنا في الأسفل خانقاً وساخناً وبلا هواء، وسعدنا براحة قصيرة على الممر وقد هبَّ علينا نسيم لطيف أمكننا رؤية كتف كل من رازح العظيم وناضر على بعد وتفصلنا عنهما سلسلة من تلال منخفضة يقال إنها تكون الحدود، وفي بعض الأجزاء عليها بعض الأعمدة الحدودية.

لقد سجلت أسماءها للرجوع إليها مستقبلاً، وذلك لأننا سنترك هذا الجانب من الحدود دون فحص في هذه المرة بسبب السلوك الرديء لقبيلة قيس، الذين في أرضهم تقع كل من حبرة وتلين باسم ملغب ومن أحدهما ينحدر شعيب خوارمة ليتصل مع وادي عنة قبل اتصاله مع معبر لتكوين وادي جازان.

يواجهنا الآن مجرى ثروة الجنوبي، وهو مختلف تماماً عن اسمه. كان جرفاً محاطاً بالصخور، شديد الانحدار، به العديد من البرك المائية ينحدر في شلالات إلى أسفل السفح. وصلنا بعد زحف فوق أرضه الصعبة على جانبه الأيمن استغرق

عشرين دقيقة إلى بيوت للبدو مبنية من الحجارة، ومبانٍ أخرى على هيئة خلية النحل تكون قرية خية شوكان الصغيرة، وهي مهجورة وتمتلكها قبيلة قيس، وعلى الجانب السعودي للحدود، التي تجري إلى أسفل الجرف، وتفصل قبيلة أم شيخ اليمنية عن قبيلة بني حريص، كما فعل ثروة الشمالي.

تجمعت أسفل هذا مرة أخرى عشش شط ثروة، وهي مستوطنة تابعة لقبيلة قيس ومهجورة، وتقع على جانبي بركة مستديرة في الجرف، بينما إلى البعيد وعلى ارتفاع ١٧٥٠ قدماً فوق سطح البحر - و٢٠٠ قدم أسفل المضيق - توجد شجرة ابراه كبيرة تنشر ظلها فوق ملتقى مسيل ثحلة فيضة مع جرف ثروة. كانت هذه الشجرة -وقد قيل لي ذلك- هي العلامة الحدودية الرسمية وهي أيضاً موقع التقاء ثلاثي بين كل من أم شيخ (اليمن) وقيس وبني حريص (كلاهما سعودي). كانت الحدود أيضاً دولية بين الاثنين الأولين هي مسيل ثحلة، ينبع من مضيق يفصل كتلة فضة الرئيسة عن ربوة بارزة تقوم فوقها قرية غينة القيسية. يندلق القيس، كما قيل لي، فوق الحدود داخل أرض أم شيخ، بين ثحلة ومسيل معض، الذي يدخل ثروة من سفح فضة قليلاً أعلى وادي ثروة.

يستمر جرف ثروة إلى أسفل ليفصل بني حريص عن قيس حتى مجرى جازان. تشمخ فوق هذه الشجرة العظيمة عند الملتقى الثلاثي، هضبة من صخر ذات ممر صعب يقود إلى أعلى. خطر بذهني أن أتسلق لأرى منظراً أفضل للبلاد من هذه القمة، وعلى الرغم من احتجاجات زملائي، فقد بدأت التسلق. ووجدت بمحض الصدفة، عند القمة العمود الحدودي الممتاز (رقم ١١٨) عند ارتفاع ١٩٠٠ قدم فوق سطح البحر. كان شيوخ بني حريص مستغربين مثلي لهذا الاكتشاف، وأبدوا بصدق عدم علمهم بوجود هذا النصب المهم. كان عليّ هنا وبكل أسف أن

أقنع نفسي بإطلالة من بعيد إلى العمود الحدودي التالي (رقم ١١٩) فوق مضيق نيد فضة. لم يكتب لي حقيقة زيارته، وذلك لأن قبيلة آل قيس ظلوا متمردين طيلة فترة زيارتي لهذه الأنحاء.

كان موقع لقاء المسايل مملوءاً بالبرك، بعضها في مساحات رملية، وبعضها في الصخور، وكلها مملوءة بالأسماك الصغيرة. واصلنا مسيرتنا على امتداد الجانب للجرف لنصل إلى قرية منفض الصغيرة (منفث) وقد انتشرت بصورة جميلة فوق الصخور حول بركة كبيرة نسبياً وجميلة وكانت أفضل بركة رأيتها. كانت عميقة في تجويف طبيعي في الصخر، وينساب من فوق شفتها البعيدة شريط من الماء إلى داخل هوة حقيقية إلى أسفل، يسكن في العشش القليلة لهذه المستوطنة بعض آل بني معن وهم تحت قسم لقبيلة أم سلع، وقد أكرمونا خلال وقفتنا القصيرة عندهم بالمنعشات من لبن رائب وخبز دخن وقد شاركناهم في هذه الوجبة شاكرين. وقد أفادونا بأن قرى قيس الصغيرة الواقعة إلى أعلى، عادة ما تكون مأهولة، إلاَّ أنهم قد هجروها الآن خوفاً مما ستقوم به الحكومة ضد المضربين. تنحدر الهوة فيما يلي البركة إلى عمق ٨٠ قدماً، عمودياً إلى أسفل إلى وادي جازان، الذي وصلناه الآن بعد هبوط شديد الانحدار.

كان ارتفاعنا عند هذا الموقع ١٦٠٠ قدم فوق سطح البحر، وتوجد عند نهايته السفلى عند انحناءة ثعبانية رشيقة للوادي، من حول الصخرة الكبيرة على جانبه الأيسر، حيث يوجد جدول سريع الانسياب عند مرتفعات حقيقية يدور بعيداً فوق بطن الرمل والحصى المتداخلة مع بروزات جرانيت أملسته السيول. يقع على مستوى الوادي عند موقع الالتقاء عدد قليل من البيوت الحجرية لقرية مصنعة الصغيرة، وهي مستوطنة قيسية إلاَّ أنها مهجورة. يعد وادي جازان من هذا الموقع وإلى الأمام

هو الخط الفاصل بين قبيلة قيس على الجانب الأيمن، وآل سلع على الجانب الأيسر حتى فم عنة الذي بدوره يفصل بين آل سلع على جانبه الأيسر وآل جملة، وهم قسم من قيس انفصل من الجسم الرئيس بمجرى معبر. يكون الوادي إلى أسفل مع اتجاه أسفل الوادي، هو الحدود بين آل سلع وبني حريص، على الرغم من أن عناصر من سلع تحتل حوالي ثلث كتلة سلع عند النهاية الغربية، وتجتمع معاً لأغراض إدارية مع آل سلع. وصلنا إلى بعض العشش (التابعة لقيس) بعد نصف الميل أسفل الوادي الملتوي -وتسمى قشعة- من المسيل الذي يدخل الوادي عند هذا الموقع من مرتفعات سلع على اليسار.

واصلنا سيرنا ونحن نلف وندور مع الجدول الهائج مرة على هذا الجانب ومرة على الجانب الآخر، مسافة ميل واحد، إلى مدخل شعيب مرقوع من مرتفعات صبا على اليمين. يحاط الوادي في كل هذه المناطق بجلاميد الشست الشامخة بينما برزت العديد من النتوءات الجرانيتية من بطنه. كان كل الوادي وعلى مسافة ميل واحد أسفل فم مرقوع مغلقاً بكتل ضخمة من الصخر، وجلاميد عظيمة مما اضطرنا إلى أن نسلك ممشى ضيقاً كممشى العنز، لارتفاع ٥٠ قدماً إلى أعلى الجانب الأيسر حتى نتقدم بأي شكل كان.

لم يتأثر الجدول بهذه الموانع وجاهد في طريقه وله هدير مرح فوق الصخور أو خلالها، ويبدو أنه يزداد قوة كلما تقدم. كان الجدول مسدوداً جزئياً إلى أسفل بواسطة جدار جرانيتي ليكون بذلك بركة ضخمة، والذي ظل يصب منها فوق شلال أعلى مجراه العنيف. كان أحد طيور البلشون يقف بجوار هذه البركة ونحن نقترب منه إلاَّ أنه طار وأنا أحاول الإمساك به. توقفنا لفترة للوضوء وأداء صلاة الظهر، لنواصل مسيرتنا أسفل المجرى المتعرج غالباً حتى قرية موشم الصغيرة

التابعة لبني حريص، عند ملتقى مسيل حشرة على اليمين. وصلنا فيما يلي هذا الموقع بعد مسيرة متعرجة مسافة ميل واحد تقريباً، إلى موقع التقاء وادي أجبة، حيث انتشر الوادي الأصلي في مجرى واسع مستقيم من رمل وحصى. تقع قرية حجفة الصغيرة على جانبه الأيسر – تتبع لبني حريص –، بينما توجد مستوطنة قرعة، على جانبه الآخر فوق ربوة على كتلة الملتقى، ومعها موقرة، وهي مجموعة عشش على الجانب المواجه عبر الوادي.

تقع كتلة من صخور جرانيتية فيما يلي أجبة بين قرعة ووادي شرحة، الذي يدخل إلى وادي جازان نفسه على مسافة نصف الميل أو أكثر إلى أسفل. وصلنا الآن لنرتاح في المعسكر أسفل جرف قرعة. تسمى هذه المساحة الشبيهة بالدلتا، على الرغم من أنها منفصلة عن سهل تهامة، بسلسلة حنقة مداخل، لتعلم التقاء هذه الخطوط المصرفية الرئيسة داخل حاجز السفوح الجبلية قبل مواصلتها لتبرز إلى الخارج داخل السهل تحت مسمى واحد هو وادي جازان. كان ارتفاعنا هنا هو ١١٥٠ قدماً فقط فوق سطح البحر.

التمس علي الشنتف العذر بسبب الصداع الذي أصابه لكي لا يرافقنا في رحلة اليوم الصعبة، كما لم يكن موسى رفيقاً مسلياً أو مفيداً على الرغم من أنه والمرشدين التابعين له قد أبدوا الرغبة في مواصلة العمل أكثر مما أبداه جماعة بني مالك. يبدو أن مجموعة بني حريص كانوا من الدرجة الثانية. كانوا كالباقين دائماً مسلحين، ولم تكن بنادقهم تفارقهم لحظة حتى في أوقات الطعام، بالرغم من أنني لم أشجع هذا العمل حينما كنت أقاسمهم الطعام. كانت كل البنادق إيطالية الصنع بالفعل، وكان الطراز أبو خسوة هو المحبوب ولابد أن يكون هنالك الألوف من هذا الطراز في هذه المنطقة. تنتمي كل القرى الصغيرة في هذه الأرض إلى بني

حريص، الـذين يملكون الكثيـر من الزراعة المسطبـية فـوق سفـوح الوادي وفوق المسايل الثـانوية، مثل مسيل أوكـان، الذي هو مملوء تماماً بها من جـانب إلى آخر وهو ينحدر من سلسـلة مشرق المنخـفضة إلى مـوقع قريب من معـسكرنا. كانت الأودية الكبيـرة بالطبع، معرضة للسـيول الضخمـة، إذا عوملت بالطريقة نفـسها وكان مـضيق جـازان العظيم، الذي دخلنا عن طريقه، خـال بدرجة مـدهشة من الغطاء النباتي. تنتـشر المياه أثناء اندفـاع السيل من الجانب إلى الآخـر وتجرف كل شيء أمامها عدا الصخور. كانت هنالك مساحات من الرمال المتحركة التي تغوص فيها الأقدام والتي لا ينصح بالمشي فوقها.

انتهـينا الآن من المرتفعات ونمت تلك الليلة وأنا علـى علم بأننا سنكون فوق السهل المنخفض في صباح الغد. يحس المرء بذلك في الهواء، غير أن الليلة كانت باردة لطيفة وكانت درجة الحرارة الدنيا ٦١ درجة مع ندى خفيف.